مشاهد وصور

obeikandl.com

obeikandl.com

الزلزلة

صور ومشاهد كثيرة مختلفة أعطاها لنا القرآن الكريم عن يوم القيامة، منها قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢ ﴾ [الحج].

هذا تصوير دقيق للحالة التي سيكون عليها الناس؛ كل الناس، يوم البعث وقبل الحساب، عقولهم من هول الموقف ستكون ذاهلة؛ فالأم التي هي في الحياة الدنيا أحرص الناس على ابنها، تتابعه أينما كان، وتلحظه أينما وجد، وبخاصة إذا كان رضيعاً صغيراً، هذه الأم ستذهل عن ابنها، يكون أمامها فلا تراه، ويناديها فلا تجيبه، ويقترب منها فلا تحس به، ذهول تام من هول الموقف العظيم!

فالناس في يوم الحساب، كل واحد منهم مشغول بنفسه، يفكر في ذاته، ولا يدور بخلده أي شيء آخر، إنه يريد أن ينجو بنفسه من هذا الهول العظيم، يريد أن يطمئن إلى مصيره، بعد أن أصبحت القيامة حقيقة واقعة أمامه يراها بعينيه، ويتابع أحداثها بنفسه بعد أن كانت غيباً عنه.

في هذه اللحظة التي يفيق فيها الإنسان ويعرف أنه محشور في ساعته للعرض على ملك الملوك؛ يذهب عقله ولا يفكر إلا في نفسه، إنه يوم وصفه الله سبحانه وتعالى في الكتاب الكريم: ﴿ يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ [المزمل: ١٧].

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴾، أي: أن المرأة التي تعتز في الحياة الدنيا بجنينها، تتخلص منه، فهي لا يشغلها إلا نفسها، وعندما يساق الناس إلى أرض المعاد لا يمشون بخطى ثابتة، لا يكونون ثابتين في مشيهم وفي تقدمهم، بل إن الرعب الذي يجتاح القلوب يجعلهم يترنحون يميناً

ويساراً كالسكارى، حتى إنك إذا نظرت إليهم تعتقد أنهم قد فقدوا اتزانهم كأنهم سكارى، ولكنهم في الحقيقة لم يتناولوا قطرة واحدة من الخمر، ولكن هول الموقف الذي هم فيه، وشدة عذاب اللّٰه الذي يخشون أن يصيبهم يجعلهم كالسكارى فلا يستطيعون أن يحفظوا توازنهم، ويترنحون في مشيتهم.

obeikandl.com

فرار المرء من أقرب الناس إليه

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس].

نفهم من قول الحق سبحانه وتعالى أنه سيكون هناك نداء بين الناس في هذا الموقف، فهذا ينادي هذا بحكم قرابة الدنيا وبحكم الصلات التي كانت بينهم في حياتهم قبل الموت، ولكن الأنساب ساعتئذٍ تختفي، فلا يصبح أحداً ملتفتاً إلى تحية أو سلام أو لقاء من أحد، رغم أنهم قد افترقوا لفترة طويلة، كل واحد منهم يقول نفسي نفسي[١]، فإذا ناداه أو حاول أن يحتمي به مثلاً أحد من أقاربه فإنه يتركه ولا يرد عليه بل يفرُّ منه، فإذا ظن الابن مثلاً أنه يُمكن أن يستنجد بأبيه الصالح في هذا اليوم، فإن هذا الأب لن يلتفت إليه ولن يستمع إلى كلامه، ولن تشفع القرابة بين الاثنين، إلا أن يشاء الله. ولها ضوابط ومقاييس حددها الله سبحانه وتعالى، وأذن بها، لأن القرابة والألفة والأنساب تنفع على إطلاقها في الحياة الدنيا، فيتجه الإنسان إلى أبيه أو أبنائه لينصروه في ساعة الشدة، ويقفوا معه في ساعات العسرة، فهم في دنيا الأسباب يفعلون ذلك، ولكن في هذا اليوم العصيب، كل واحد منهم مشغول بنفسه عن الآخرين، يريد أن يهرب من أولئك الذين قد يصيبهم العذاب، لا يريد أن يتعلق به أحد، ولا أن يحمل من أوزار أحد، بل يبتعد قدر الإمكان عن الناس؛ كل الناس، طالباً لنفسه السلامة من العذاب، ويقول: نفسي نفسي.

❁ ❁ ❁

---

(١) جزء من حديث الشفاعة الطويل أخرجه البخاري [٣٣٤٠] ومسلم [١٩٤/ ٣٢٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

أصدقاء الأمس.. أعداء اليوم!

يساق الناس إلى أرض المعاد، وهم يترنحون من هول الموقف، مشيتهم غير متزنة، وخطواتهم غير ثابتة، وكل من له عمل صالح يريد أن يهرب ممن لهم أعمال سوء، ينادونه فلا يرد عليهم، ويستنجدون به فلا ينجدهم، يظنون أن قرابته لهم أو صداقته بهم في الدنيا ستشفع لهم في ذلك اليوم، ولكن هيهات.. إنه لا يلتفت إليهم طلباً للنجاة بنفسه، وترى أولئك الذين تجمعوا على حب الدنيا، أو تجمعوا على معصية الله، يفرون من بعضهم البعض فهم يومئذٍ أعداء ألداء، صداقتهم في الدنيا قد تلاشت تماماً، ولم لا وكل منهم قد ساعد الآخر على أن يكون من أهل النار؟كل الناس في هذا الموقف أعداء إلا المتقين، لماذا لا يكون المتقون أعداء لبعضهم البعض في ذلك اليوم؟ لأن المتقين كانوا يتعاونون على الخير، فإذا رأى واحد منهم زميله يمشي في طريق الخير أعانه، وإذا رآه يمشي في طريق الشر يقف في طريقه، وينصحه حتى يعود إلى طريق الخير.

لقد كان المتقون يتعاونون على البر، فوقوا أنفسهم عذاب النار، كل واحد منهم نصح الآخر، أي: أمره بالمعروف ونهاه عن المنكر، فنفعهم ذلك في هذا اليوم العظيم، ونجاهم الله، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

نور المؤمنين يوم القيامة

إن للمؤمنين نوراً يمشون به في وسط ظلمات هذا اليوم العظيم، والكافرون يحاولون أن يتقربوا من المؤمنين بأن ينادوا عليهم، أو يطلبوا منهم أن يشفعوا لهم، أو يكونوا لهم عوناً، ولكن هذا كله لا يفيد، لقد تقطعت الأسباب، وأصبح كل إنسان مشغولاً بنفسه.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحديد].

حينئذٍ عندما يحس الكفار والمنافقون بالفارق الكبير بين العذاب الذي يحيط بهم، والرحمة التي تحيط بالمؤمنين، ينادي الكفار والمنافقون المؤمنين: ألم نكن معكم في الحياة الدنيا، ألم نعش معاً حياة واحدة[(١)]؟

---

(١) يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المتصدقين: أنهم يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة بحسب أعمالهم كما قال عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الحديد: ١٢] قال: على قدر أعمالهم يمرون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه، يتقد مرة، ويطفأ مرة.

ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير. وقال قتادة ذُكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن أبين وصنعاء فدون ذلك حتى أن من المؤمنين من يضيء نوره موضع قدميه».

وقال سفيان الثوري عن حصين عن مجاهد عن جنادة بن أبي أمية قال: إنكم مكتوبون عند الله بأسمائكم وسيماكم وحلاكم ونجواكم ومجالسكم فإذا كان يوم القيامة قيل: يا فلان هذا نورك، يا فلان لا نور لك، وقرأ: ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ وقال الضحاك: ليس أحد لا يعطي نوراً يوم القيامة، فإذا انتهوا إلى الصراط طفيء نور المنافقين فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طفيء نور المنافقين، فقالوا: ﴿ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ [التحريم: ٨].

وقال الحسن: ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ يعني على الصراط. وقد قال ابن أبي حاتم رحمه الله =

فيرد عليهم المؤمنون: نعم لقد عشنا حياة واحدة، ولكنكم أيها الكافرون

= تعالى: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب أخبرنا عمي عن يزيد بن أبي حبيب عن سعيد بن مسعود أنه سمع عبد الرحمن بن جبير يحدث، أنه سمع أبا الدرداء وأبا ذر يخبران عن النبي ﷺ قال: «أنا أول من يؤذن له يوم القيامة بالسجود، وأول من يؤذن له برفع رأسه فأنظر من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي، فأعرف أمتي من بين الأمم».
فقال له رجل يا نبي الله كيف تعرف أمتك من بين الأمم ما بين نوح إلى أمتك؟
فقال: «أعرفهم محجلون من أثر الوضوء ولا يكون لأحد من الأمم غيرهم، وأعرفهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم بسيماهم في وجوههم، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم»[1]. وقوله: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ قال الضحاك أي: وبأيمانهم كتبهم، كما قال: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الإسراء: ٧١].
وقوله: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الحديد: ١٢]، أي: يقال لهم بشراكم اليوم جنات، أي: لكم البشارة بجنات تجري من تحتها الأنهار.
﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبدا ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.
وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾، وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة في العرصات من الأهوال المزعجة، والزلازل العظيمة، والأمور الفظيعة وإنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله ﷺ وعمل بما أمر الله به وترك ما عنه زجر.
قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبدة بن سليمان حدثنا ابن المبارك، حدثنا صفوان بن عمرو حدثني سليم بن عامر قال: خرجنا على جنازة في باب دمشق ومعنا أبو أمامة الباهلي فلما صلى على الجنازة وأخذوا في دفنها قال أبو أمامة: أيها الناس إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر وهو هذا ـ يشير إلى القبر ـ بيت الوحدة، وبيت الظلمة، وبيت الدود، وبيت الضيق، إلا ما وسع الله، ثم تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة، فإنكم في بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس أمر من الله، فتبيض وجوه، وتسود وجوه، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر فيغشى الناس ظلمة شديدة، ثم يقسم النور فيعطي المؤمن نوراً، ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئاً، وهو المثل الذي ضربه الله تعالى في كتابه فقال: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].
فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن. كما لا يستضيء الأعمى ببصر البصير. ويقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ [الحديد: ١٣]. وهي خدعة الله التي خدع بها المنافقين حيث قال: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم وقد ضُرب بينهم ﴿بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ الآية. =

(١) رواه الحاكم في المستدرك [٢/ ٤٧٨] وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وسكت عنه الذهبي، وبنحوه أحمد في المسند [٥/ ١٩٩].

والمنافقون ضيعتم أنفسكم بما استمتعتم به في الدنيا من نعم زائفة، وكنتم

= إلا أنه يقول سليم بن عامر: فما يزال المنافق مغترًا حتى يقسم النور، ويميز الله بين المنافق والمؤمن، ثم قال: حدثنا أبي حدثنا يحيى بن عثمان، حدثنا ابن حيوة، حدثنا أرطاة بن المنذر، حدثنا يوسف بن الحجاج عن أبي أمامة قال: يبعث الله ظلمة يوم القيامة فما من مؤمن ولا كافر يرى كفه حتى يبعث الله بالنور إلى المؤمنين بقدر أعمالهم فيتبعهم المنافقون فيقولون: ﴿ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾.

وقال العوفي والضحاك وغيرهما عن ابن عباس: بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله نوراً فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه وكان النور دليلاً من الله إلى الجنة، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا اتبعوهم فأظلم الله على المنافقين فقالوا حينئذ: ﴿ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ فإنا كنا معكم في الدنيا، قال المؤمنون: ﴿ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ ﴾ من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا هنالك النور.

وقال أبو القاسم الطبراني حدثنا الحسن بن عرفة بن علوية القطان[(١)] حدثنا إسماعيل بن عيسى العطار حدثنا إسحاق بن بشر بن حذيفة حدثنا ابن جريج عن ابن مليكة عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تعالى يدعو الناس يوم القيامة بأسمائهم ستراً منه على عباده، وأما عند الصراط فإن الله تعالى يعطي كل مؤمن نوراً، وكل منافق نوراً، فإذا استووا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات، فقال المنافقون: ﴿ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ وقال المؤمنون: ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ قال الحسن وقتادة: هو حائط بين الجنة والنار.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هو الذي قال الله تعالى: ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾.

وهكذا روي عن مجاهد رحمه الله وغير واحد وهو الصحيح.

﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ أي: الجنة وما فيها ﴿ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ أي: النار. قاله قتادة وابن زيد وغيرهما.

قال ابن جرير وقد قيل إن ذلك السور سور بيت المقدس عند وادي جهنم.

ثم قال: حدثنا ابن البرقي، حدثنا عمرو بن أبي سلمة عن سعيد بن عطية بن قيس عن أبي العوام مؤذن بيت المقدس قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: إن السور الذي ذكره الله في القرآن: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ هو السور الشرقي باطنه المسجد وما يليه، وظاهره وادي جهنم.

ثم روى عن عبادة بن الصامت، وكعب الأحبار، وعلى بن الحسين، وزين العابدين نحو ذلك، وهذا محمول منهم على أنهم أرادوا بهذا تقريب المعنى، ومثالاً لذلك. لا أن هذا هو الذي أريد منه القرآن هذا الجدار المعين ونفس المسجد وما وراءه من الوادي المعروف =

(١) في ابن كثير المطبوعة «العطار» والتصويب من المعجم الكبير.

(٢) رواه الطبراني في الكبير [١١/ ١٢٢/ ١١٢٤٢].

تتربصون بعباد الله المؤمنين لتؤذوهم وتوقعوهم في الشر، وظننتم أنكم لن تقفوا بين يدي ربكم، وحسبتم أنكم ستفلتون من هذا اليوم، وكانت شياطين الإنس والجن تقدم لكم الأماني الزائفة عما ستحققونه في الدنيا، فأصابكم الغرور بهذه الأماني، وتكبرتم وتجبرتم حتى جاء أجلكم، وجاء أمر الله، وجاء الحساب، فوجدتم أن ما وعدكم الله حقاً، وأن ما وعدكم الشيطان غروراً، فاليوم لا ينفعكم شيء، ولا ينجيكم من عذاب الله أحد.

= بوادي جهنم فإن الجنة في السموات في أعلى عليين، والنار في الدركات أسفل سافلين.
وقول كعب الأحبار «إن الباب المذكور في القرآن هو باب الرحمة الذي هو أحد أبواب المسجد» فهذا من إسرائيلياته وترهاته، وإنما المراد بذلك سور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه؛ فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب، وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب، كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وجهل وشك وحيرة.

﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ أي: ينادي المنافقون المؤمنين أما كنا معكم في الدار الدنيا، نشهد معكم الجمعات، ونصلي معكم الجماعات، ونقف معكم بعرفات، ونحضر معكم الغزوات، ونؤدي معكم سائر الواجبات؟

﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ أي: فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين بلى قد كنتم معنا ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ ﴾ قال بعض السلف: أي فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصي والشهوات، وتربصتم أي: أخرتم التوبة من وقت إلى وقت.

وقال قتادة ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾، بالحق وأهله، ﴿ وَٱرْتَبْتُمْ ﴾ أي: بالبعث بعد الموت ﴿ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ ﴾ أي: قلتم سيغفر لنا، وقيل: غرتكم الدنيا ﴿ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ أي: مازلتم في هذا حتى جاءكم الموت ﴿ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ أي الشيطان.

قال قتادة كانوا على خدعة من الشيطان، والله ما زالوا عليها حتى قذفهم الله في النار. ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين إنكم كنتم معنا، أي: بأبدان لا نية لها، ولا قلوب معها، وإنما كنتم في حيرة وشك فكنتم تراؤون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلاً.

قال مجاهد كان المنافقون مع المؤمنين أحياء يناكحونهم، ويغشونهم، ويعاشرونهم، وكانوا معهم أمواتاً. ويعطون النور جميعاً يوم القيامة، ويطفأ النور من المنافقين إذا بلغوا السور ويماز بينهم حينئذ.

وهذا القول من المؤمنين لا ينافي قولهم الذي أخبر الله تعالى به عنهم حيث يقول وهو أصدق القائلين: ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المدثر].

تفسير ابن كثير [٤/٣٠٩: ٣١٠].

يوم تبيض وجوه وتسود وجوه

يوم الحشر يكون للناس أحوال مختلفة، فلكل واحد منهم درجة من الدرجات، اللّه سبحانه وتعالى يعرض لنا عدداً من هذه المواقف في القرآن الكريم، ليرينا كيف ستكون أحوال العباد المختلفة، فليس المؤمنون في درجة واحدة، وكذلك الكافرون ليسوا على درجة واحدة، ولكن لكلٍ درجة، ولكلٍ حال، هناك الذين كذبوا على اللّه، وهناك الذين أشركوا باللّه، وهناك الذين عبدوا غير اللّه، وهناك الذين أضلوا الناس. إذن.. صور عديدة ومتعددة.

فهذا يريد أن يفر(١)، وهذا يتمنى أن يكون تراباً(٢)، وهذا يريد أن يعود ليعمل صالحاً ولو عاد لأفسد(٣)، والناس حين يساقون إلى أرض الميعاد يكونون في هيئات وأحوال متعددة فهم في أول يوم الحشر في حال، وفي آخره في حال، كل واحد من الناس له حالة تناسب عمله في الدنيا، وقد أخبرنا ربنا سبحانه في كتابه العظيم وعلى لسان رسوله الكريم شيئاً من تلك الصور في ذلك اليوم وأحوال الناس فيه، فقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]. ولكن هل البياض أو السواد يتعلق باللون، أم يتعلق بالحالة؟

في كثير من الأحيان ترى إنساناً إذا أصابه هَمّ، وبلغ حالة اليأس يقول لك: لقد اسودت الدنيا في وجهي، هل الدنيا اسودت حقاً وأصبح لونها أسود؟ بالطبع لا.. إن الدنيا كما هي، ولكن ما يعتري هذا الإنسان من الهمّ جعل الدنيا سوداء في نظره، وأصبح لا يرى شعاع النور والأمل.

---

(١) إشارة إلى قول اللّه تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾.

(٢) إشارة إلى قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ [النبأ: ٤٠]

(٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧].
وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام].

obeikandi.com

وكم من إنسان لون بشرته سمراء، ولكنك ترى وجهه مشرقاً بالإيمان، متلألئاً بالنور، تستبشر به وتقول: إن وجهه مشرق.

إذن.. فاللون هنا ليس هو المحل، ولا يستطيع إنسان أن يقول: إن الله سبحانه وتعالى قد مدح الوجوه البيضاء في الدنيا، وذم الوجوه السوداء، وشبه بهم الكافرين.. إن عدل الله يأبى هذا، فلا فرق بين عباد الله جميعاً إلا بالتقوى(١)، بل إن أهل جهنم قد يكونون من أصحاب الوجوه البيضاء في الدنيا ولكن أعمالهم مجللة بالسواد.

إذن.. فالسواد هنا معناه: أنك إذا نظرت لهذه الوجوه بغض النظر عن لونها، فإنك ترى سحب السواد تكسوها، تراها وقد غاب عنها الإشراق فتبدو ذميمة كالحة، تحس أن كل ما حولها أسود، فعملها أسود، وحسابها أسود، ومصيرها أسود، ولا أمل لها ولا فيها.

إذن.. موكب الحشر يمضي، وهم يومئذ على صور مختلفة، إنهم يمشون جماعات، المؤمنون جماعات، والكافرون جماعات، وكل جماعة في شأن، جماعة من أصحاب الوجوه السوداء يقول قائلهم: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٤].

فقد ملأهم الندم وأحسوا بعظم ما اقترفوا من جرم في حق أنفسهم بمعصيتهم لله تعالى.

وجماعة أخرى كذبوا على الله فاسودت وجوههم بعملهم هذا، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠].

وأخرى قال الله تعالى فيهم: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [يونس: ٢٧].

وآخرون يتمنون أن تسوي بهم الأرض: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [النساء: ٤٢].

هناك صور عديدة في القرآن الكريم تبين أحوال الخلق جميعاً يوم القيامة، خلق يحملون أوزارهم، وآخرون يحملون أوزارهم وأوزاراً مع أوزارهم، أي: أنهم لا يحملون فقط خطاياهم، بل يحملون أيضاً من خطايا آخرين ظلموهم، فاقتص الله تعالى منهم بأن أخذ من حسناتهم للمظلومين، فلما نفدت الحسنات، أخذ من سيئات المظلومين وحملها على الظالمين(٢).

(١) إشارة لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].
(٢) أخرج مسلم في صحيحه [٢٥٨١/٥٩]، والترمذي [٢٤١٨]، وأحمد في المسند [٢/ =

وإذا كان ذلك كذلك؛ فالمؤمن الصالح لا يتأثر بعمل قريبه العاصي أو الكافر، لأن اللّٰه تعالى يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]. أي: أن كل واحد يحمل ذنبه فقط الذي اقترفه، ولا يحمل إنسان ذنب إنسان آخر، وضرب اللّٰه سبحانه وتعالى لنا أمثلة في القرآن الكريم توضح ذلك، ففرعون مثلاً كان من أشد العصاة للّٰه، نصب نفسه إلٰهاً في الأرض ليعبده الناس، وجاءه نبي اللّٰه موسى عليه السلام بآيات كثيرة، فرفض أن يؤمن، واستمر في ضلاله وفي ادعائه الألوهية، فكان جزاءه أن اللّٰه سبحانه وتعالى وعده بأشد العذاب؛ قال الحق سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وفرعون هذا، كانت له امرأة صالحة مؤمنة، كرمها اللّٰه تعالى وشرفها بأن ذكرها في القرآن العظيم، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى الْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

وهكذا نرى أن امرأة فرعون التي عاشت حياتها في بيت إمام الكفر والضلال؛ في قصر فرعون، أنها أخلصت للّٰه سبحانه وتعالى، وطلبت منه سبحانه النجاة من فرعون وعمله، ومن القوم الظالمين المحيطين به، فكان جزاؤها في الآخرة الجنة، ولم يحملها اللّٰه من أوزار فرعون شيئاً.

وفي المقابل، امرأة نوح وهو نبي، وامرأة لوط وهو نبي، تأمل قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

هذه قصة امرأتين كانتا في بيتي نبوة ولكنهما كفرتا باللّٰه، وناصرتا الكفار ضد دعوة اللّٰه تعالى، فكان مصيرهما النار، ولم يشفع لهما أنهما كانتا زوجتي نبيين، لأن أهل الأنبياء هم المؤمنون الذين آمنوا بهم وصدقوا بالرسالة وعملوا بها.

= ٣٧١] عن أبي هريرة رضي اللّٰه تعالى عنه قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: «أتدرون ما المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار.

وكذلك ابن نبي الله نوح الذي رفض أن يؤمن وأصر على الكفر، فلم يغن عنه أنه ابن رسول ونبي، وعندما أراد نبي الله نوح النجاة لابنه وقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود: ٤٥].

قال الله تعالى مُعلماً ومُرشداً لنبيه ورسوله نوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٥].

وكذلك الخليل إبراهيم أراد أن يستغفر لعمه آزر، فلما علم أنه عدو لله تعالى أنكره وتبرأ منه، وذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

obeikandl.com

المضلّون.. يحملون أوزارهم وأوزاراً مع أوزارهم

الحق سبحانه وتعالى قد أعطانا أمثلة في القرآن الكريم تؤكد لنا: ﴿لَيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩]، وأن: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، وأن ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

وذلك يعني: أن الإنسان يحمل يوم القيامة ما ارتكب من وزر فقط، وأن كل إنسان يحاسب على عمله هو، وأن أي نفس لا تحمل إثماً أو عقوبة ذنب اقترفته نفس أخرى.

وإذا كان ذلك كذلك فكيف نفهم قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥].

نقول: إذا كان الوزر الذي يحمله هو من عمله، فالوزر الذي يحمله مع أوزاره هو من عمله أيضاً، فالإنسان حين يكون كافراً أو عاصياً، فإنه يحمل وزره يوم القيامة، فإذا كان مُضلاً، أي: لا يكتفي هو باقتراف المعاصي بل يزينها لغيره، فيدفع الناس إلى شرب الخمر مثلاً، ويغريهم بالزنا، ويزين لهم أكل الربا، وشهادة الزور، وقتل النفس، فإنه في هذه الحالة يحمل من أوزار هؤلاء الناس الذين أضلهم وزين لهم المعاصي فوق وزره.

فكل إنسان أغراه ذلك المضل بشرب الخمر، كلما تناول كأساً من الخمر فعلى الذي زين له ذلك إثم، ولا ينقص من إثم الشارب شيء، وكل إنسان شجع امرأة أو رجلاً على الزنا، كلما زنا هذا الرجل أو هذه المرأة كان عليه إثم، ولا ينقص من إثمهما شيء.

وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن استن سنة سيئة فعليه إثمها وإثم من عمل بها إلى يوم القيامة»(١).

---

(١) أخرجه مسلم [١٠١٧/ ٧٠] من حديث جرير رضي الله تعالى عنه.

على أن السؤال هنا هو الصورة التي سيتم عليها ذلك، هل سيحمل الإنسان فوق ظهره عمارة أو عدة عمارات بناها بمال حرام؟ وهل من الممكن أن تكون الصورة هكذا؟ أم أن الناس يحملون كتاباً فيه أعمالهم، وكلما كانت هذه الأعمال سيئة كان الحمل على ظهورهم ثقيلاً يتعثرون به، لا يستطيعون المشي، وأحياناً يضطرون أن يزحفوا على بطونهم، أو على ركبهم من ثقل ما يحملون.

الصورة هنا غيب لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، ولكن من المؤكد أنهم سيشعرون بثقل عظيم على ظهورهم، ثقل يجعل هذه الظهور تئن مما تحمل، تجعل صاحبها ينقل قدميه بصعوبة بالغة، ويبذل جهداً كبيراً في أن يخطو خطوة واحدة.

يتلفت يميناً ويساراً يبحث عمن يساعده في هذا الحمل الثقيل فلا يجد أحداً، الكل يهرب منه. واقرأ قول الحق سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

ذلك أن أول ما تحاول أن تستنجد به، وأول من يلجأ إليه الإنسان في وقت الشدة هم أقاربه، فتحاول هذه النفس في هذا اليوم العصيب أن تستنجد بأولادها وإخوتها، بل كل الأقارب ولكنهم جميعاً يهربون، ولا يحمل أحد من هذا الحمل شيئاً.

obeikandl.com

البراءة من الشرك

يجمع الله تعالى يوم القيامة الذين اتخذوا من دونه أنداداً، وذلك المتخذ نداً. ويواجههم حتى تكون الفضيحة على رؤوس الأشهاد، بين عابد عبد باطلاً، وبين معبود غير مستحق للعبادة، وهذا الغير مستحق للعبادة نوعان: نوع لم يطلب من أحد أن يعبده كالملائكة والرسل والصالحين، أو كالشمس والقمر والبقر والنار والأصنام.

والنوع الثاني: الذي تأله على الله، وعبد الخلق له ظلماً وبغياً بغير الحق، كفرعون وأمثاله من الطغاة والظالمين.

وهذا الحوار الذي سيتم، وهذه المواجهة ستكون على رؤوس الأشهاد جميعاً.

وقد يتساءل بعض الناس.. كيف يمكن لهذا الجمع الغفير أن يشهد ويسمع ويرى هذا الحوار؟ نقول لهؤلاء جميعاً: لو فكرتم قليلاً لما أصابتكم الدهشة! ماذا يحدث الآن عندما يكون هناك حدث مهم في العالم؛ تنقله الأقمار الصناعية، ألا تستطيع الدنيا كلها أن تراه في جميع بقاع الأرض في آن واحد؟

وإذا كانت هناك مثلاً مباراة لكرة القدم، ألا نستطيع أن نشهدها هنا في مصر في عشرات الألوف من المنازل في وقت واحد، ونسمع ما يدور هناك؟ فإذا أحصينا ذلك في العالم أجمع، نجد أن هناك ملايين المشاهدين في ملايين الأماكن المتفرقة من أقصى الدنيا إلى أقصاها يستطيعون أن يشهدوا هذا الحدث في نفس لحظة حدوثه بالصوت والصورة، إذا كانت هذه قدرة البشر للبشر، فكيف بقدرة الله سبحانه وتعالى. ألا يستطيع الله عز وجل بقدرته أن يجعل خلقه كلهم يرون هذا الحوار ويشهدونه وهم في أماكنهم؟ إن ذلك على الله يسير؛ وهو على كل شيء قدير.

إذن.. هذا الحوار سيكون علنيًا يشهده أهل المحشر كلهم، يرون ويسمعون ما يدور، سيرون ما يحدث، وكيف سيكون الحساب، وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

obeikandl.com

أ

براءة الملائكة

ومن هؤلاء الذين عبدوا بغير حق ولا علم لهم بعبادة الناس إياهم؛ الملائكة. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١)﴾ [سبأ].

وهكذا برأت الملائكة أنفسهم من هذا الاتهام، ونزهوا الله سبحانه وتعالى من أن يكون هناك معبود غيره، فقالوا: ﴿سُبْحَانَكَ﴾، أي: تباركت وتعاليت وتنزهت من أن يُعبد غيرك في هذا الكون، ثم تقول الملائكة: أنت يا ربي إلهنا ونحن في طاعتك لا نجرؤ على المعصية ولا نقدر عليها، ولم نَقُلْ لهؤلاء الكفار اعبدونا، بل لم نكن ندري شيئاً عن عبادتهم لنا، وكيف نفعل ذلك ونحن مخلوقون لعبادتك مفطورون على طاعتك.

obeikandl.com

ب

براءة الكواكب والجماد

ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى بالشمس والقمر والنجوم والجبال والحجارة، وكل ما عُبد من دون الله، ويسألهم، هل أنتم قلتم لهؤلاء اعبدونا من دون الله؟ وهنا يرد الجميع، كل بدوره، وكل شيء يوم القيامة سيتكلم لأن الله سينطق كل شيء، سينطق الحجارة والشمس والماء، وكل ما في الكون، فيقول هؤلاء جميعاً كل بدوره، يا رب نحن لم نقل لهم شيئاً، نحن أعْبدُ لك منهم ونحن نسبحك ليل نهار، ونحن مفطورون على طاعتك، سلهم يا رب أي رسول أرسلناه إليهم ليبلغهم عن ألوهيتنا، أو أي منهج بلغناه لهم ليطبقوه في عبادتنا؟!

بالطبع لا شيء.. فلا الشمس أرسلت رسولاً إلى الناس تقول لهم اعبدوني، ولا القمر أعد منهجاً لعبادته، ولا الأحجار ادّعت أنها آلهة لابد أن يسجد لها، بل كل هذه المخلوقات عابدة مسبحة لله تعالى، تلعن الإنسان الكافر وتتمنى أن تفتك به، وتتم هذه المواجهة كما قلنا أمام خلق الله جميعاً، وخصوصا أولئك الذين عبدوا هذه الأشياء حتى يكونوا شهداء على أنفسهم بشهادة الآلهة بزعمهم التي عبدوها من دون الله تعالى، ليس هذا فقط بل إن الذين اتُّبعُوا سواء بعلم أو بغير علم، سيتبرأون من الذين اتبعوهم، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ ﴾ [البقرة: ١٦٦].

وهكذا تقف كل هذه المخلوقات الذين عُبدوا من دون الله تعالى، لتعلن أمام الله سبحانه وتعالى أنها لا علم لهم بمن اتخذوهم آلهة، وأنهم لم يدعوا أحداً لاتخاذهم آلهة، ولذلك عندما يخاطب الله سبحانه وتعالى الأحجار التي اتخذوا منها أصناماً، تقول الأحجار عبدونا ونحن أعبد لله من القائمين في الأسحار، ذلك أن هذه الأحجار تسبح بحمد الله؛ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

بعض الناس يتساءل: هل ستتحدث الأحجار يوم القيامة؟ وهل ستنطق؟

نقول لهم: إن كل شيء سينطق يوم القيامة، فأعضاء الإنسان ستشهد عليه،

والأرض التي يمشي عليها ستشهد عليه وتُحدِّث بما فعل على ظهرها(١)، تسألوننا كيف ستنطق؟ وبأي لغة ستتكلم؟ نقول: إنها ستتكلم بلغة تفهمونها جميعاً، فإذا كان الإنسان سيفهم لغة العين والسمع والجلد، ويعتب على أعضاء جسمه فيقول لها: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾؟

ومعنى ذلك: أنهم فهموا كلامهم، وإلا لما قالوا: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾؟.

فترد الجلود والأسماع والأبصار: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

إذن.. هناك حوار سيدور بين الإنسان وسمعه وبصره وجلده وكل جوارحه بلغة يفهمها الإنسان، وتفهمها هذه الأعضاء كلها، وإلا فإنه لا يمكن أن يدور حوار إلا بين اثنين يتكلمان لغة مشتركة.

فلو أننا أتينا برجل إنجليزي لا يعرف كلمة واحدة من اللغة العربية، ورجل عربي لا يفهم كلمة واحدة من اللغة الإنجليزية؛ هل يمكن أن يدور بينهما حوار؟ بالطبع؛ لا، ولكن لا بد أن تكون هناك لغة مشتركة، وسيعلمنا الله سبحانه وتعالى يوم القيامة لغة كل أجناس الأرض، ولغة كل مخلوقاتها التي نراها والتي لا نراها، حتى يدور بيننا الحوار على أوسع مدى، فنحن سنكلم الملائكة ونراهم ويروننا، ونحن سنرى إبليس وذريته، ويدور بينه وبين الكافرين حوار، وكل شيء سيتكلم وينطق، كل شيء كان صامتاً في الدنيا سيتكلم، وسينطق، وسيشهد،

---

(١) روى الترمذي [٢٤٢٩] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]، قال: أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: فإن أخبارها أن تشهد على كلِّ عبدٍ أو أمة بما عمل على ظهرها، تقول: عمل يوم كذا وكذا. فهذه أخبار.

وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب(١).

قال القرطبي: فتفكر يا أخي وإن كنت شاهداً عدلاً بأنك مشهود عليك في كل أحوالك من فعلك ومقالك وأعظم الشهود لديك المطّلعُ عليك الذي لا تخفى عليه خافية عين، ولا يغيب عنه زمان ولا أين. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]. فاعمل عمل من يعلم أنه راجع إليه، وقادم عليه، يجازى على الصغير والكبير والقليل والكثير. سبحانه لا إله إلا هو.

التذكرة [١/ ٣٢٩].

---

(١) وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي [٤٢٨].

obeikandl.com

حتى الأشياء التي سخرها الله لإرادة الإنسان، وجعلها خاضعة لهذه الإرادة في الدنيا كاللسان مثلاً الذي جعله الله صالحاً لأن يقول كلمة الإيمان، وأن يقول كلمة الكفر والعياذ بالله، فإذا أمر الإنسان لسانه أن ينطق كلمة الكفر أطاعه ونطقها، ولكن هذا اللسان في ذاته عابد وطائع ومسبح، ولذلك يأتي يوم القيامة ويشهد على صاحبه بأنه أجبره على نطق كلمة الكفر لأنه مسخر لإرادة الإنسان.

ولكن عندما تخمد الإرادة البشرية بالموت، يشهد كل شيء على الإنسان، ولا يملك الإنسان أن يقهر عضواً من أعضائه على أن يفعل ما يغضب الله، بل كل هذه الأعضاء تشهد على الكافر وتلعنه، ولذلك فإن الحجارة التي هي أعبد لله من كثير من البشر، ستشهد على من عبدوها يوم القيامة وتتبرأ منهم، وكذلك الشمس والقمر والنجوم؛ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦].

❁ ❁ ❁

جـ

براءة الرسل عليهم صلوات الله وسلامه

فإذا انتقلنا إلى البشر، وعلى قمتهم الرسل يسأل الله سبحانه وتعالى عيسى ابن مريم عليهما السلام: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾(١) [المائدة: ١١٦].

وهكذا يتبرأ الرسل عليهم السلام من الذين عبدوهم من دون الله، ويجد أولئك الذين أشركوا بالله أنفسهم في موقف حقير جدًا، فهؤلاء الذين عبدوهم في الدنيا وقدموا لهم القرابين، وأتعبوا أنفسهم في إقامة التماثيل لهم من الذهب والفضة والمعادن النفيسة، هؤلاء الذين أمضى المشركون جل حياتهم يتقربون إليهم؛ يتبرأون منهم ذلك اليوم، وحينئذٍ يشعر هؤلاء المشركون بتفاهتهم وعظم ذنبهم، ويتمنون لو أنهم سويت بهم الأرض، أو كانوا تراباً بدلاً من أن يقفوا هذا الموقف المخزي أمام الله سبحانه وتعالى.

❁ ❁ ❁

(١) انظر فصل: شهادة عيسى عليه السلام من هذا الكتاب.

obeikandl.com

إبليس اللعين يحاول التنصل من جريمته!

ثم يأتي دور إبليس فيقول لمن اتبعه من الغاوين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢] ويُرى في ذلك اليوم مذموماً مدحوراً، خاسئاً حسيراً، وهو الذي طغى من قبل حين قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]. وأعلن من بدء الأمر أنه سيكون عدوًّا لآدم وذريته. ولكنه استدرك وقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٣].

إذن.. فكل من عبد الله مخلصاً وقاه الله غواية إبليس، ولم يستطع أن يقدر عليه، وكل من عبد الله وفي قلبه شك، أو رياء، أو نفاق؛ فإن غواية الشيطان تدخل إلى نفسه فيزين له المعصية، وإبليس يعرف ناحية الضعف في الإنسان فيغويه منها.

فإن كان الإنسان ضعيفاً أمام المال أغواه إبليس بالمال، وإن كان الإنسان ضعيفاً أمام النساء أغواه إبليس بالنساء، وإن كان الإنسان ضعيفاً أمام الحياة، والسلطة، والسلطان، أغواه إبليس بالجاه والسلطان.

إذن.. فالغواية من إبليس وذريته، لذرية آدم، يكون محجوباً عنها هؤلاء الذين أخلصوا العبودية لله، فهؤلاء ناجون من غواية إبليس؛ لأن الله وقاهم سلطان إبليس وذريته، فلم يعصوا ولم يشركوا ولم يكفروا، وإنما عبدوا الله وأخلصوا له الدين.

يجمع الله إبليس وذريته، وهم الفاسقون من الجن، لأن هناك من الجن صالحين مؤمنين، وهناك الجن الظالمون الفاسقون[1]، فالجن الذين يتبعون إبليس

---

(١) إشارة لقول الله تعالى في سورة الجن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾.

obeikandl.com

في إغواء الإنسان، وفي إفساد منهج الله في الأرض، هؤلاء هم الذين يسمون الشياطين، ولابد أن نعرف أن الجن هم مقابل الإنس، ولهم اختيار، وأنه كما يوجد في الإنس طائع وعاص، كذلك يوجد في الجن، العاصون وهم الشياطين الذين يخدمون فكرة إبليس في إغواء الإنسان بالكفر، مثلهم كمثل طبقة من الإنس أغواهم الشياطين، فأصبحوا في خدمتهم، يفسدون منهج الله، وهؤلاء هم شياطين الإنس.

إذن.. فالحوار بين من ومن؟ أيكون الحوار بين الذين عبدوا ولم يعرفوا شيئاً عن ذلك، أم يكون بين شياطين الإنس وشياطين الجن الذين خالفوا المنهج؟!

obeikandl.com

حشر الذين أشركوا وشركائهم

يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ [يونس: ٢٨].

إذن.. فالكلام هنا: للذين أشركوا من الإنس والجن ﴿مَكَانَكُمْ﴾، وحين تسمع إنساناً يقول لك مكانك؛ يعني: لا تتحرك حتى ينتهي هذا الموقف ويحسم، وهي كلمة وعيد، وتهديد من الله سبحانه وتعالى، ومعناها لا تتحركوا فإن عليكم حساباً لابد أن توفوه، وهذا الحساب ليس في صالحكم.

الذين أشركوا يحسبون أنهم ضاعوا في زحام الآخرة وأنهم أفلتوا من المواجهة، ومن الفضيحة أمام خلق الله، ولكن عندما يسمعون قول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَكَانَكُمْ﴾ يتأكدون أنهم لن يفلتوا، وأنهم في قبضة الله تعالى، وليس هم فقط، بل هم وشركاؤهم. وذلك قول الله تعالى: ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾؛ أي: كل الذين اجتمعوا على باطل في الدنيا يجمعهم الله يوم القيامة، ولكن الله سبحانه وتعالى لا يجمعهم في معسكر واحد، إنه سبحانه يجعل الذين قاموا بالغواية والإضلال في معسكر، والذين انقادوا لهذه الغواية في معسكر آخر، وذلك قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨]؛ أي: فرقنا بينهم، حتى يصبح هناك فريق يواجه فريقاً، فيقول: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨].

o b e i k a n d l . c o m

حشر الذين ظلموا وأزواجهم

وفي مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة؛ يقول الحق سبحانه: ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴾ [الصافات: ٢٢].

أي: إن الذين ظلموا لن يحشروا وحدهم، بل ستحشر معهم زوجاتهم، لماذا جعل الله الزوجات يحشرن مع أزواجهن الذين ظلموا، بل قدم الزوجات على ما كانوا يعبدونهم من دون الله؟

إن الزوجات متقدمات عن أولئك الذين كانوا يعبدون، ومعنى هذا التقديم أن الزوجات متقدمات في الإغواء وفي التوجيه إلى الشر قبل الشيطان، وما كان يزينه من عبادة غير الله تعالى.

الله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا في هذا، إلى أن هناك في بعض الأحيان من النساء من هنّ أفسد لدين الرجل من الشياطين، فمنهن من ينتهزن فرصة حاجة الرجل إليهن، ويدفعونه إلى طريق الإثم والانحراف، ليفعل ما يردن، فإن كُنّ في حاجة إلى المال، أغرينه ليسرق أو يرتشي. وإن كُنّ يردن الحياة الناعمة، أغرينه بارتكاب المعاصي كلها حتى يهيئ لهن هذه الحياة. وإن كُنّ يردن الانتقام من شخص ما، أغرينه بالشر والكذب والتزوير، وربما الجريمة، ليصلن إلى هدفهن من شهوة الانتقام، ولو بالزور والزيف، ويطيع الزوج المغلوب على أمره، وينحرف، ويفعل كل ما يطلب منه دون النظر إلى الحلال والحرام، رائده في ذلك طاعة زوجته وطلباً لمرضاتها.

إذن.. الله سبحانه وتعالى يفضح هؤلاء الزوجات يوم القيامة، وعلى مشهد من خلقه جميعاً، وهم واقفون في المحشر ينظرون؛ فيصدر الأمر إلى ملائكته: ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الصافات].

أي: أوقفوهم في مكان محدد حتى يكونوا معروفين ومميزين من دون الخلق جميعاً لنسألهم عما فعلوا، فكأنه في هذه الحالة يكون الزوج والزوجة

مسؤولَيْن معاً عن الإثم الذي حدث، فالزوجة لها إثم بحيث ارتكبت معصية بالتحريض الذي قامت به، والإغواء على الإثم الذي ظلت تطارد به زوجها، وكأنها شيطان ملازم له تأمره بالمعصية، فإذا رفض جعلت حياته جحيماً حتى يذعن ويفعل ما تريد، والزوج هو الآخر مسؤول، لأنه كان عليه أن يقاوم وأن يتخلص من هذه الزوجة التي تريد أن تدفعه إلى الهاوية، جرياً وراء ملذاتها وشهواتها، فلا هي تخشى الله وترضى بما قسمه لها، ولا ترحم زوجها، فهي تدفعه لارتكاب شتى أنواع المحرمات ليأتي لها بما تريده، وهذا أحد الأسباب في أن الله شرع الطلاق، ألا فليعلم الناس جميعاً أنه لا عذر لأحد في أن يطيع مخلوقاً في معصية الخالق(١).

وهنا في هذا الموقف تظهر العداوة بين الزوج وزوجته، ويحاول كل منهما أن يتهم الآخر، وحينئذ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥].

أي: أنكم كنتم حزباً واحداً، كنتم يداً واحدة، كان كل منكم يسرع إلى تلبية رغبة الآخر، والوقوف معه في الباطل، فما لكم اليوم لا تناصرون، بل تقفون لا يستطيع أحد منكم أن ينصر الآخر.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٦].

لماذا استسلموا؟ مع أنهم كانوا في الدنيا يتعاونون على الإثم والعدوان، وقد كانوا لا يستسلمون لشيء، فإذا تعذر عليهم الحصول عليه عن طريق الرشوة أسرعوا إلى طريق الاختلاس، أو إلى أي طريق آخر.

(١) أخرج البخاري [٧٢٥٧] عن علي رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ بعث جيشاً وأمَّرَ عليهم رجلاً، فأوقد ناراً وقال: «ادخلوها» فأرادوا أن يدخلوها وقال: آخرون: إنما فررنا منها فذكروا للنبي ﷺ، فقال للذين أرادوا أن يدخلوها: «لو دخلوها لم يزالوا فيها إلى يوم القيامة» وقال للآخرين: «لا طاعة في المعصية إنما الطاعة في المعروف».

شهادة عيسى عليه السلام على قومه وأتباعه

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١١٦].

هذا مثل لشهادة التبليغ من الرسل وبأنهم قاموا بالتبليغ بمنهج الله كما نزل من السماء، والله يعلم صدق رسله في البلاغ، ولكن ليكون حساب من انحرفوا عن المنهج عدلاً، وليكون هؤلاء الذين انحرفوا بالمنهج، شهداء على أنفسهم، فلا يستطيعون أن ينكروا، ولا أن يدّعوا أن هذا التحريف هو من فعل الرسل أو من بلاغهم.

ويأتي جواب عيسى عليه السلام مُنكراً على الذين قالوا هذا القول، وادعوا فيه ما ليس بحق ويبدأ كلامه بأن نزه الله سبحانه وتعالى من أن يكون هناك معبود سواه فقوله: ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ أي: تنزهت، وتقدست، وتعاليت، عن أن يكون هناك معبود غيرك. ثم يؤكد عيسى عليه السلام صدق بلاغه عن الله فيقول: ﴿ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾.

أي أن عيسى عليه السلام يقول: يا ربي خلقتني على الصدق؛ فكيف أتجاوز وأدعي حقًا ليس لي، ثم يلتمس عيسى من الله الشهادة فيقول: ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾، أي: أنك يا ربي تعلم كل ما نطقت به، فإذا كنت قلت مثل هذا الكلام فلابد أنك علمته، وإن كنت أخفيته في نفسي ولم أقله ولكنني اعتقدت به ولم أظهره لأحد فأنت يا ربي علمته أيضاً لأنك يا ربي: ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾.

ثم يقول عيسى عليه السلام مقرراً حقيقة دعوته: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٧].

وكذلك يُسأل كل الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين عن أممهم[(١)].

(١) قال القرطبي: أخرج ابن المبارك في رقائقه مرسلاً، أخبرني رشدين بن سعد، قال: أخبرني ابن أنعم المعافري عن حبان بن أبي جبلة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله عبادَه يومَ القيامة، كان أولَ من يُدعَى إسرافيلُ عليه السلام، فيقول له ربُّه ما فعلت في عهدي، هل بلغت عهدي؟ فيقول: نعم قد بلغت جبريلَ. فيدعي جبريل عليه السلام فيقول: هل بلغك إسرافيل عهدي؟ فيقول: نعم يا رب قد بلغني، فيخلى عن إسرافيل، ويقال لجبريل: هل بلغت عهدي؟ فيقول جبريل: نعم قد بلغت الرسلَ، فيدعي الرسلُ فيقول: هل بلغكم جبريل عهدي؟ فيقولون: نعم. فيخلى عن جبريل. ثم يقال للرسل: هل بلغتم عهدي؟ فيقولون: قد بلغنا أممنا. فتدعى الأمم فيقال لهم هل بلغكم الرسلُ عهدي؟ فمنهم المصدق، ومنهم المكذب. فتقول الرسلُ: إن لنا عليهم شهوداً يشهدون أن قد بلغنا، مع شهادتِك. فيقول: من يشهد لكم؟ فيقولون محمدٌ وأمتهُ، فتدعى أمة محمد. فيقولون: تشهدون أن رسلي هؤلاء قد بلغوا عهدي إلى من أرسلوا إليه؟ فيقولون: نعم، رب شهدنا أن قد بلغوا فتقول تلك الأمم كيف يشهد علينا من لم يدركنا؟ فيقول لهم الربُّ: كيف تشهدون على من لم تدركوا؟ فيقولون: ربنا بعثت إلينا رسولاً، وأنزلت إلينا عهدَك وكتابَك وقصصك علينا، أنهم قد بلغوا، فشهدنا بما عهدت إلينا، فيقول الربُّ: صدقوا. فذلك قوله عز وجل ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، والوسط: العدل ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. قال ابن أنعم: فبلغني أنه يشهد يومئذ أمة محمد ﷺ إلا من كان في قلبه حنة على أخيه.

وقال ـ أي القرطبي ـ: وذكر أبو حامد في كتاب كشف علوم الآخرة، أن هذا يكون بعد ما يحكم الله تعالى بين البهائم ويقتص للجمّاء من القرْناء، ويُفْصل بين الوحش والطير يقول لهم: كونوا تراباً فتسوى بهم الأرض وحينئذ ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [النساء: ٤٢]. ويتمنى الكافر فيقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠] ثم يخرج النداء من قبل الله تعالى: أين اللوح المحفوظ؟ فيؤتى به له هرج عظيم. فيقول الله تعالى: أين ما سطرت فيك من توراة وزبور وإنجيل وفرقان؟ فيقول: يا رب نقله مني الروح الأمين. فيؤتى به يرعد وتصطك ركبتاه. فيقول الله تعالى: يا جبريل هذا اللوح المحفوظ يزعم أنك نقلت منه كلامي ووحيي، أصدق؟ قال: نعم يا رب قال: فما فعلت فيه؟ قال: أنهيتُ التوراة إلى موسى، وأنهيت الزبورَ إلى داود، وأنهيت الانجيل إلى عيسى، وأنهيت الفرقان إلى محمد عليهم السلام، وأنهيت إلى كلِّ رسول رسالتَه وإلى أهل الصحف صحائفهم.

فإذا بالنداء: يا قوم نوح، فيؤتى بهم زمرة واحدة، فيقال: هذا أخوكم نوح يزعم أنه بلغكم الرسالة. فيقولون يا ربنا كذب، ما بلغنا من شيء، وينكرون الرسالة. فيقول الله يا نوح ألك بينة؟ فيقول: نعم يا رب؛ بينتي عليهم محمد وأمته. فيقولون: كيف ونحن أولُ =

= الأمم وهم آخرُ الأمم؟ فيؤتى بالنبي ﷺ فيقول: يا محمد هذا نوح يستشهد فيشهد له بتبليغ الرسالة. فيقرأ ﷺ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ [نوح: ١] إلى آخر السورة. فيقول الجليل جل جلاله: قد وجب عليكم الحق، وحقت كلمة العذاب على الكافرين. فيؤمر بهم زمرةً واحدة إلى النار من غير وزن عمل ولا حساب.
ثم ينادي أين هود؟ فيفعل قوم هود مع هود كما فعل قوم نوح مع نوح فيستشهد عليهم بالنبي ﷺ وخيار أمته فيتلو: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣] فيؤمر بهم إلى النار مثل أمة نوح. ثم ينادي: يا صالح، ويا ثمود، فيأتون فيستشهد صالح عندما ينكرون، فيتلوا النبي ﷺ ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١] إلى آخر القصة. فيفعل بهم مثلما فعل بغيرهم، ولا يزال يخرج أمة بعد أمة، وقد أخبر عنهم القرآن بياناً، وذكرهم فيه إشارة كقوله تعالى: ﴿وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا﴾ [الفرقان: ٣٨].
وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ﴾ [المؤمنون: ٤٤]. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ وفي ذلك تنبيه على أولئك القرون الطاغية، كقوم تارخ وتارح ودوحاً وأسراً، وما أشبه ذلك، حتى ينتهي النداء إلى أصحاب الرّسّ، وقوم إبراهيم، وفي كل ذلك لا يُرفع لهم ميزان ولا يوضع لهم حساب وهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون والترجمان يكلمهم لأن الرب تعالى من نظر إليه وكلمه لم يعذبه.
ثم ينادى بموسى بن عمران، فيأتي وهو كأنه ورقة في ريح عاصف، أصفر لونه، واصطكت ركبتاه، فيقول له: يا ابن عمران، جبريل يزعم أنه بلغك الرسالة والتوراة فتشهد له بالبلاغ، قال: نعم. قال: فارجع إلى منبرك، واتل ما أوحى إليك من ربك، فيرقي المنبر، ثم يقرأ، فينصت له كلُّ من في الموقف فيأتي بالتوراة غضة طرية على حُسنها يوم أنزلت حتى تتوهم الأحبار أنهم ما عرفوها يوماً.
ثم ينادي يا داود، فيأتي وهويرعد، وكأنه ورقة في ريح عاصف، تصطك ركبتاه، فيصفر لونه فيقول الله جل ثناؤه: يا داود زعم جبريل أنه بلغك الزبور، فتشهد له بالبلاغ فيقول: نعم يا رب. فيقال له: ارجع إلى منبرك واتل ما أوحي إليك. فيرقي ثم يقرأ وهو أحسن الناس صوتاً. وفي الصحيح أنه صاحب المزامير.
ثم ينادي المنادي أين عيسى ابن مريم فيؤتى به على باب المرسلين فيقول: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ [المائدة: ١١٦]. ثم يحمد تحميداً ما شاء الله تعالى، ويثني عليه كثيراً، ثم يعطف على نفسه بالذم والاحتقار ويقول: ﴿سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾، فيضحك الله، ويقول: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾ [المائدة: ١١٩]. يا عيسى، ارجع إلى منبرك، واتل الإنجيل الذي بلغك جبريل. فيقول نعم، ثم يرقي ويقرأ فتشخص إليه الرؤوس لحسن ترديده وترجيعه فإنه أحكم الناس به رواية فيأتي به غضًا طريًا حتى يظن الرهبان أنهم ما علموا به قط، ثم ينقسم قومه فرقتين: المجرمون مع المجرمين، والمؤمنون مع المؤمنين. =

= ثم يخرج النداء: أين محمد فيؤتى به ﷺ فيقول: يا محمد، هذا جبريل يزعم أنه بلغك القرآن. فيقول: نعم يا رب. فيقال له: ارجع إلى منبرك واقرأ، فيتلو ﷺ القرآن، فيأتي به غضًا طريًا، له حلاوة، وعليه طلاوة، يستبشر به المتقون، وإذا وجوهُهم ضاحكة مستبشرة، والمجرمون وجوههم مغبرة مقترة، فإذا تلا النبي ﷺ القرآن، توهمت الأمة أنهم ما سمعوه قط».

وقد قيل للأصمعي: تزعم أنك أحفظهم لكتاب الله، قال: يا ابن أخي يوم أسمعه من رسول الله ﷺ كأني ما سمعته.

فإذا فرغت قراءة الكتب، خرج النداء من قبل سرادقات الجلال: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩] فيرتج الموقف، ويقوم فيه روح عظيم والملائكة قد امتزجت بالجن، والجن ببني آدم، والكل لجة واحدة.

ثم يخرج النداء: يا آدم ابعث بعث النار. فيقول: كم يا رب؟ فيقال له: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة. فلا يزال يستخرج من سائر الملحدين والغافلين والفاسقين حتى لا يبقى إلا قدر حفنة، كما قال الصديق رضي الله تعالى عنه: نحن حفنات بحفنات الرب سبحانه وتعالى.

التذكرة [١/ ٣٣٠: ٣٣٤].

obeikandi.com

شهادة الأنبياء والمرسلين على أممهم

في مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة؛ يقول الحق سبحانه: ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: ٦٩].

هل هذا القضاء حساب؟ وهل سيحاسب النبيون يوم القيامة؟ إذا تأملنا الآية فإنها تجمع بين الشهداء والنبيين، والمعروف أن الشهداء يدخلون الجنة بدون حساب، ففي سورة ﴿يسٓ﴾ عندما جاء العبد الصالح ليدعو الناس إلى الإيمان، ويطالبهم باتباع المنهج الذي أنزل على رسول ذلك الزمان، وهو الذي جاء ذكره في القرآن في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [يس].

عندما قال الرجل الصالح ذلك، ودعا الناس إلى اتباع النبيين قتله الكفار، فماذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس].

أي أن الله سبحانه قَسَمَ له دخول الجنة ساعة استشهاده، ولم ينظره إلى يوم القيامة، والدليل على ذلك أن الآية تقول: ﴿. . . يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾، ولو كان هذا القضاء في الآخرة لما قال الرجل: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾، لأنه في هذه الحالة، وفي يوم الحساب، سيعلم قومه جميعاً بدخوله الجنة.

إذن . . فالله سبحانه وتعالى قَسَمَ الجنة للشهداء ساعة الاستشهاد، وإذا كان الشهداء أحياء عند ربهم مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وما داموا أحياء عند ربهم، والحياة عند الله هي الحياة الخالدة التي لا موت فيها، وما داموا هم ينعمون في هذه الحياة الخالدة الباقية، فقد قَسَمَ الله

openmaktaba.com

لهم الجنة ساعة استشهادهم، بينما أُجِّلَ باقي خلق الله إلى يوم القيامة.

هذه هي منزلة الشهداء عند الله سبحانه وتعالى، والنبيون منزلتهم أعلى من الشهداء، لأنهم مقدمون في الآية الكريمة: ﴿وَجِاْيٓءَ بِالنَّبِيِّـۧنَ وَالشُّهَدَآءِ﴾، أي: أنهم يسبقون الشهداء، ولكن النبيين يحضرون يوم القيامة لا ليحاسبوا على أعمالهم، ولكن ليكون كل نبي شهيداً على أمته، وتكون الأمة شاهدة على أن الرسول قد بلغ الرسالة، وبذلك يحضر الشاهد والمشهود، وفي هذا يكون هناك تقريع للعاصين، حتى لا يستطيعوا أن ينكروا أن الرسول قد بلغ، وحتى يكون هذا التقريع أمام خلق الله كلهم(١).

إن الأنبياء معصومون، وليس هناك حساب لمن عصمهم الله من المخالفات والذنوب والمعاصي، وإنما شهادة على أن الرسول قد بلغ، وتقريع لأولئك الذين حرفوا المنهج أو خالفوه، ولذلك فإنك لو تأملت قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؟ [المائدة: ١١٦].

---

(١) قال الله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف].

أخرج البخاري [٤٤٨٧]، والترمذي [٢٩٦١]، وابن حبان في صحيحه [٦٤٧٧]، وأبي يعلى [١١٧٣] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعى نوحٌ يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب. فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم. فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير. فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمدٌ وأمته. فيشهدون أنه قد بلغ، فذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وروى ابن ماجه [٤٢٨٤]، وأحمد في المسند [٣/ ٥٨]، والنسائي في الكبرى [٦/ ٢٩٢/ ١١٠٠٧] عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجلُ، ويجيء النبي ومعه الرجلان، ويجيء النبي ومعه الثلاثة، وأكثرُ من ذلك فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم. فيدعي قومه فيقال: هل بلغكم؟ فيقولون: لا. فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: محمدٌ وأمته فتدعى أمةُ محمد ﷺ فيقال: هل بلغ هذا؟ فيقولون: نعم. فيقول: وما علمكم بذلك؟ فيقولون: أخبرنا نبينا ﷺ بذلك أن الرُسلَ قد بلغوا فصدقناه. قال فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]». وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه [٣٤٥٧]، والأرناؤوط في المسند [١١٥٥٩].

وتدبرت قول عيسى عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

لأيقنت أن عيسى عليه السلام سيكون شاهداً يوم القيامة على أولئك الذين اتخذوه إلهاً، ويقر بأنهم خالفوا منهجه الذي أمرهم، به وهو عبادة الله تعالى وحده، وهكذا الأنبياء جميعاً، فكل نبي يكون شهيداً على أمته بالمنهج الذي بلغه، حتى لا يستطيع أحد أن يجادل ويقول: إن الرسول قد قال هذا: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

وهكذا يجعل الله سبحانه وتعالى العصاة والكافرين يشهدون على أنفسهم بأنهم كاذبون.

هذا هو الأصل في مجيء النبيين والشهداء، فهؤلاء لا يحاسبون لأن الله قد كتب لهم أن يدخلوا الجنة بغير حساب، بل إنهم صلوات الله وسلامه عليهم، يشفعون لغيرهم يوم القيامة.

فرسول الله ﷺ يقول: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»[(١)]، لذلك فإن كل من ينكر شفاعة الرسل نقول له اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النجم: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [النجم: ٢٦].

واستخدام الحق سبحانه وتعالى لكلمة: ﴿إِلَّا﴾ معناها أن هناك استثناء، فإلا حرف استثناء، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد كتب على نفسه أنه يستثني من خلقه من يشاء ليكونوا شفعاء، فإن أجدر الناس بهذا الاستثناء هم أنبياء الله ورسله، الذين اختارهم ليبلغوا منهجه إلى البشر.

ورسول الله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، والمرسل إلى الناس كافة، جعل

(١) رواه أبو داود [٤٧٣٩] والترمذي [٢٤٣٥]، وأحمد في المسند [٣/ ٣١٢]، والبيهقي في الكبرى [٨/ ١٧/ ١٥٦١٦]، والحاكم في المستدرك [١/ ٦٩] عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٣٩٦٥]. ورواه ابن ماجه [٤٣١٠]، وابن حبان في صحيحه [٦٤٦٧] عن جابر رضي الله تعالى عنه.

اللّٰه تبارك وتعالى له الشفاعة العظمى، لأنه لم يرسل إلى قوم بعينهم كباقي الرسل، وإنما أرسل إلى العالمين، ولذلك فإن أمته هي أكثر الأمم عدداً، وشفاعته هي أكثر الشفاعات اتساعاً، إذن.. فالشفاعة مثبتة لرسول اللّٰه ﷺ بنص القرآن الكريم[١].

---

(١) راجع فصل الشفاعة من هذا الكتاب.

obeikandl.com

تمني الكافر والعاصي أن تسوى بهما الأرض

قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

ساعة ترى ﴿ يَوْمَئِذٍ﴾ وتجد فيها هذا التنوين فاعلم أنه عوض عن شيء محذوف؛ والمحذوف هنا أكثر من جملة، ويصبح المعنى: يوم إذ نجيء من كل أمة بشهيد، وتكون أنت عليهم شهيداً، في هذا اليوم: ﴿ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ لأنهم فوجئوا بعملية كانوا يكذبونها، فلم يكونوا معتقدين أن الحكاية جادة، كانوا يحسبون أن كلام الرسول ﷺ مجرد كلام ينتهي، فعندما يفاجئهم يوم القيامة ماذا يكون موقفهم؟ ﴿ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾، وما معنى: ﴿ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾؟ كما تقول: سأسوّي بفلان الأرض؛ أي تدوسه دوسة بحيث يكون في مستوى الأرض.

وقوله: ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾، فكيف لا يكتمون اللّه حديثاً؟ وهو قد قال في آية أخرى: ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

قال الحق ذلك عنهم لأن الأمر له مراحل: فمرة يتكلمون، ويكذبون، فهم يكذبون عندما يقولون: ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. وسيقولون عن الأصنام التي عبدوها: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

إذن.. فقوله: ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ دليل على أن الحديث مندفع، ولا يقدر صاحبه أن يكتمه، فالكتم: أن تعوق شيئاً يخرج بطبيعته من شيء آخر فتكتمه، والواحد منهم في الآخرة لا يقدر أن يكتم حديثاً؛ لأن ذاتية النطق ليست في أداة النطق كما كان الأمر في الدنيا فقط، بل سيجدون أنفسهم وقد قدموا إقرارات بخطاياهم، وبألسنتهم وبجوارحهم؛ لأن النطق ليس باللسان فقط، فاللسان سيشهد، والجلود تشهد، واليدان تشهدان، بل كل الجوارح تشهد.

إذن.. فالمسألة ليست تحت سيطرة أحد، لماذا؟ لأن هناك ما نسميه:

«ولاية الاقتدار»، ومعناها أن هناك قادراً، وهناك مقدور عليه، ولكي نقرب الصورة؛ عندما توجد كتيبة من الجيش وعليها قائد، وبعد ذلك قامت الكتيبة في مهمة، والقانون العام في هذه المهمة أن يجعل لهذا القائد قادرية الأوامر، وعلى الجنود طاعته؛ وألا يخالفوا الأوامر العسكرية، فإذا أصدر هذا القائد أمراً تسبب في فصل معركة ما، وذهب الجنود للقائد الأعلى منه، ويسمونه الضابط الأعلى من الضابط الصغير، فيكون للجنود معه كلام آخر، إنهم يقدرون أن يقولوا: هو الذي قال لنا ونفذنا أوامره.

أقول ذلك لتقريب المعنى لحظة الوقوف أمام الحق سبحانه وتعالى. فحينما خلق ـ سبحانه ـ الإنسان خلق جوارحه منفعلة لإرادته، وإرادته مكيفة حسب اختياره. فإرادة الطائع إطاعة أمر، واجتناب نهي، وإرادة العاصي على العكس؛ لا يطيع الأمر، ولا يتجنب المنهي عنه، فواحد أراد أن يشرب الخمر، فرجله مشت، ولسانه نطق لِلرَّجُلِ الذي يعطيه الكأس، ويده امتدت وأخذت الكأس وشرب، والجوارح التي تقوم بهذه العملية هي خاضعة لقادرية إرادته، فقد خلقها ربنا هكذا، وبعد ذلك، حين تذهب إلى من دبر هذا الأمر في الآخرة، تقول له: يا رب هو عمل بي كذا وكذا، لماذا؟ لأن قادرية الإرادة امتنعت في ذلك اليوم الذي قال الله تعالى فيه: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وليس لي ولا لأحد إرادة في الآخرة، وما دام ليس لي إرادة، فاليد تتكلم وتعترف: عمل بي كذا وكذا، وكنت يا رب مقهورة لقادرية إرادته التي أعطيتها له، فبمجرد ما يريد فأنا أنفذ، عندما أراد أن أضرب واحداً لم أمتنع، ويعترف اللسان بسبّه لفلان، أو مدحه لآخر.

إذن.. فكل هذه ولاية القادرية من الإرادة على المقدورات من الجوارح. لكن إذا ما ذهبت إلى من وهب القادرية للإرادة؛ فلا يوجد أحد له إرادة، فكأن الجوارح حين تصنع غير مرادات الله بحكم أنها خاضعة للمريد وهو غير طائع تكون كارهة؛ لذلك تفعل أوامر صاحبها وهي كارهة، فإذا ما انحلت إرادته وجدت الفرصة فتقول ما حدث: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [فصلت: ٢١].

﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [النساء: ٤٢].

لأن الكافر سيقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النبأ: ٤٠].

❁ ❁ ❁

obeikandl.com

شهادة أعضاء الإنسان عليه

علمنا أن هناك حياة لكل ما خلق الله في هذا الكون، حياة قد نجهلها، وحياة قد نعرف منها شيئاً، ونجهل أشياء، وحياة قد نعرفها كلها؛ ولكن لكل ما خلق الله في هذا الكون حياة تناسب مهمته على الأرض.

وإذا كنا قد وصلنا إلى هذه النتيجة، فلا نستغرب قول الله سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ . . . ﴿٢١﴾﴾.

لأن الجلود هي من خلق الله سبحانه وتعالى، ولها لغة تسبح بها، ولكن لا نفهمها ولا نسمعها، وكذلك العين والأذن والأنف، وكل خلية من خلايا الجسم هي مسبحة لله طائعة له، ولكنها مسخرة لنا بأمر الله تعالى، فاليد مسخرة في أن تطيعني أن أساعد بها مسكيناً، أو رجلاً أعمى، حتى وإن أردت أن أبطش بها ضعيفاً فلا تعصيني.

واللسان في الحياة الدنيا مسخر لي، فأستطيع أن أقول به الحق، وأن أقول به الكذب، وأنطق بكلمة الإيمان أو كلمة الكفر، وهو في كل هذا يطيعني.

وكذلك كل أعضاء الجسد، فإذا جاءت الآخرة، انتهى هذا التسخير وزال، وأصبح اللسان الذي كان مسخراً لخدمتي في الحياة الدنيا بأمر الله، شاهداً عليَّ، وكذلك العين، والجلد . . الخ.

وحينئذ تقف كل هذه الأعضاء لتشهد بالحق[1] بما فعلت في الدنيا من

---

(١) قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].
وقال: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النور: ٢٤].
وقال: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ الآية.
وروي من حديث معاوية بن حيدة القرشي أن النبي ﷺ قال: «تأتون يوم القيامة وعلى =

معاصٍ، ويعلمنا الله تعالى لغتها، فنسمع لشهادتها علينا.

= أفواهِكم الفدامُ، أول ما يعرب عن أحدكم فخذه[1]، وفي رواية: فخذه وكفه»[2].
وأخرج مسلم [٢٩٦٩/١٧] عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: «كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «هل تدرون مم أضحك؟» قال، قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «من مخاطبة العبد ربه، يقول يا رب، ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول بلى، قال: فيقول فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني. قال: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهودا، قال فيختم على فيه، فيقال لأركانه انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام. قال: فيقول بُعْداً لَكُنَّ وسُحْقاً، فعنكن كنت أناضل».
وروى الترمذي [٢٤٢٨] عن أبي سعيد وعن أبي هريرة قالا: قال رسول الله ﷺ: «يؤتَى بالعبد يوم القيامة فيقول الله له: ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً، وسخرت لك الأنعام، والحرث، وتركتك تَرْأَسُ وتربع، فكنت تظن أنك ملاقي يومَك هذا؟ فيقول لا. فيقول اليوم أنساك كما نسيتني». وقال هذا حديث صحيح غريب.
وأخرج البخاري [٣٣٣٤]، ومسلم [٢٨٠٥/٥١] عن أنس ابن مالك رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله يقول لأهون أهل النار عذاباً لو كان لك ما في الأرض من شيء كنت تفتدي به؟ قال: نعم. قال: فقد سألتك ما هو أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي، فأبيت إلا الشرك».
قال القرطبي: قوله عليه السلام: «فأول ما يتكلم من الإنسان فخِذُه» يحتمل وجهين:
أحدهما: أن يكون ذلك زيادة في الفضيحة والخزي على ما نطق به الكتاب في قوله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩] لأنه كان في الدنيا يجاهر بالفواحش، ويخلو قلبه عندها من ذكر الله تعالى، فلا يفعل ما يفعل خائفاً مشفقاً، فيجزيه الله بمجاهرته بفحشه على رؤوس الأشهاد.
والوجه الآخر: أن يكون هذا فيمن يقرأ كتابه، ولا يعرف بما ينطق به، بل يجحد، فيختم الله على فيه عند ذلك وتنطق منه الجوارح التي لم تكن ناطقة في الدنيا، فتشهد عليه سيئاته، وهذا أظهر الوجهين. يدل عليه أنهم يقولون لجلودهم أي لفروجهم في قول زيد بن أسلم، لم شهدتم علينا فتمردوا في الجحود فاستحقوا من الله الفضحَ والإخزاء. نعوذ بالله منهما.
وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: اليوم أتركك في العذاب؛كما تركت عبادتي ومعرفتي.
فإن قيل: فهل يلقى الكافر ربه ويسأله؟ قلنا نعم. بدليل ماذكرنا. وقد قال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ٦]. في أحد التأويلين. وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ =

---

(١) رواه أحمد في المسند [٤٤٦/٤] والنسائي في الكبرى [١١٤٣١/٤٣٩/١٩]. والطبراني في الكبير [١٠٣٦/٤٢٦/١٩].
(٢) رواه أحمد في المسند [٤/٥]، والطبراني في الكبير [٩٦٩/٤٠٧/١٩].

= رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠]. وقال: ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ١٨]، وقال: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف: ٤٨]، الآيتين. وقال: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم (٢٦)﴾ [الغاشية].

وقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢، ١٣]. والآي في هذا المعنى كثير.

فإذا قيل فقد قال الله تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ وقال عليه السلام: «يخرج عُنُقٌ من النار فيقول: وكِّلت بثلاثٍ: بكلِّ جبار عنيد، وكل من جعل مع الله إلهاً آخر، وبالمصورين»(١).

قلنا: هذا يحتمل أن يكون بعد الوزن والحساب وتطاير الكتب في اليمين والشمال وتعظيم الخلق كما تقدم، ويدل عليه قوله: «وبالمصورين» فإنهم وإن كانوا موحدين، فلابد لهم من سؤال وحساب، وبعده يكونون أشد الناس عذاباً. وإن كانوا كافرين مشركين، فيكون ذكرهم تكراراً في الكلام.

على أن نقول: قال بعض العلماء: ذكر الله تعالى الحساب جملة وجاءت الأخبار بذلك، وفي بعضها ما يدل على أن كثيراً من المؤمنين يدخلون الجنة بغير حساب، فصار الناس إذن ثلاث فرق: فرقة لا يحاسبون أصلاً، وفرقة تحاسب حساباً يسيراً، وهما من المؤمنين، وفرقة تحاسب حساباً شديداً، يكون منها مسلم وكافر، وإذا كان من المؤمنين من يكون أدنى إلى رحمة الله. فلا يبعد أن يكون من الكفار من هو أدنى إلى غضب الله. فيدخله النار بغير حساب.

وقد ذكر ابن المبارك في رقائقه عن شهر بن حوشب عن ابن عباس، أن بعد أخذ النار هؤلاء، تنشر الصحف، وتوضع الموازين، وتدعى الخلائق للحساب. فإن قيل فقد قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] وقال: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ وقال: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧٧] وهذا يتناول بعمومه جميع الكفار. قلنا القيامة مواطن: فموطن يكون فيه سؤال وكلام، وموطن لا يكون ذلك فلا تناقض الآي، والأخبار، والله المستعان.

قال عكرمة: القيامة مواطن يسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها.

وقال ابن عباس: لا يسألون سؤال شفاء وراحة، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ، لم عملتم كذا وكذا؟ والقاطع لهذا قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣)﴾ [الحجر].

قال أهل التأويل عن لا إله إلا الله: وقد قيل إن الكفار يحاسبون بالكفر بالله الذي كان =

---

(١) وروى أحمد في المسند [٢/٣٣٦] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول ﷺ: «يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان يبصر بهما، وأذنان يسمع بهما، ولسان ينطق به، فيقول: إني وكلت بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبكل من ادعى مع الله إلهاً آخر، والمصورين». وقال الأرناؤوط إسناده: صحيح.

= طول العمر دثارهم، وشعارهم، وكل دلالة من دلائل الإيمان خالفوها وعاندوها فإنهم يبكتون عليها، ويسألون عنها وعن الرسل وتكذيبهم إياهم لقيام الدلائل على صدقهم.
وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت]. والآى في هذا المعنى كثيرة، ومن تأمل آخرة سورة المؤمنين ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ إلى آخرها تبين له الصواب في ذلك. والحمد لله على ذلك.
وذكر ابن المبارك عن شهر بن حوشب عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن بعد أخذ النار هؤلاء الثلاثة: تنشر الصحف، وتوضع الموازين، ويدعى الخلائق للحساب. فإن قيل: فقد ذكر اللالكائي في سننه عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «لا يُحاسب رجل يوم القيامة إلا دخل الجنة» قالوا: ولأن الحساب إنما يراد للثواب والجزاء، ولا حسنات للكافر فيجازى عليها بحسابه، ولأن المحاسب له هو الله تعالى، وقد قال: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [البقرة: ١٧٤].
قلنا: ما روي عن عائشة قد خالفه غيرها في ذلك للآيات والأحاديث الواردة في ذلك وهو الصحيح، ومعنى ولا يكلمهم الله أي: بما يحبونه، قال الطبري وفي التنزيل: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] وقد قيل إن معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]؛ سؤال التعرف لتمييز المؤمنين من الكافرين أي: إن الملائكة لا تحتاج أن تسأل أحداً يوم القيامة، أن يقال ما كان دينك، وماكنت تصنع في الدنيا حتى يتبين لهم بإخباره عن نفسه أنه كان مؤمناً أو كان كافراً لكن المؤمنين يكونون ناضري الوجوه، منشرحي الصدور. ويكون المشركون سود الوجوه، زرقاً، مكروبين. فهم إذا كلفوا سَوق المجرمين إلى النار، وتميزهم في الموقف، كفتهم مناظرهم عن تعرف أديانهم، ومن قال هذا فيحتمل أن يقول: إن الأمر يوم القيامة يكون بخلاف ما هو كائن قبله على ما وردت به الأخبار من سؤال الملكين الميت إذا دفن وانصرف الناس عنه فيسألونه عن ربه ونبيه، أي إذا كان يوم القيامة لم تسأل الملائكة عند الحاجة إلى تمييز فريق عن هذا لاستغنائهم بمناظرهم عما وراءها، ومن قاله يحتج بقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر].
أخبر أنه يسألهم عن أعمالهم، وهذه الآية في الكافرين، ومن قال يسألهم عن أصل كفرهم، ثم عن تجريدهم إياه كل وقت باستهزائهم بآيات الله تعالى ورسله فقد سألهم عما كانوا يعملون، وذلك هو المراد.

التذكرة [١/ ٣٢٣: ٣٢٧].

سؤال الكفار والمشركين

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام].

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ [القصص: ٦٤].

هاتان الآيتان تبينان لنا موقف الذين أشركوا بالله يوم القيامة، بحيث يسألهم الله أين شركاؤكم؟ أحضروا ما أشركتم به، فيتلفتون يميناً ويساراً فلا يجدون شيئاً، فينقسم ردهم إلى قسمين:

قسم يكذبون على أنفسهم وهم يعتقدون أنهم يكذبون على الله؛ فيقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

أي: أنهم يكذبون على أنفسهم ويحسبون أنهم أفلتوا، ولكن الله يعلم أنهم كاذبون، فتشهد عليهم ألسنتهم بأنهم نطقوا الكذب[(١)].

---

(١) قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عن المشركين: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام]. يقول تعالى مخبراً عن المشركين: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة، فيسألهم عن الأصنام والأنداد التي كانوا يعبدونها من دونه قائلاً لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ كما قال في سورة القصص: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢]. وقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ أي: حجتهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، قال ابن عباس؛ أي: معذرتهم. وكذا قال قتادة. وقال ابن جرير: والصواب: ثم لم يكن قيلهم عند فتنتنا إياهم ـ اعتذاراً مما سلف منهم من الشرك بالله ـ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: «أتاه رجل فقال: يا أبا عباس؛ سمعت الله يقول: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قال: أما قوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة، فقالوا: تعالوا فلنجحد، فيجحدون، فيختم الله على أفواههم، وتشهد أيديهم وأرجلهم، ولا يكتمون الله حديثاً، فهل في قلبك الآن شيء؟ إنه ليس من القرآن شيء إلا قد نزل فيه شيء، ولكن لا تعلمون وجهه».

وقال الضحاك عن ابن عباس: هذه في المنافقين. وفيه نظر: فإن هذه الآية مكية، =

obeikandl.com

أما القسم الآخر: يبحثون عن شركائهم يميناً ويساراً فلا يجدون شيئاً ولا

= والمنافقون إنما كانوا بالمدينة، والتي نزلت في المنافقين آية المجادلة: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾. وهكذا قال في حق هؤلاء: ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ كقوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤)﴾ [غافر].

وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أي: أغطية، لئلا يفقهوا القرآن ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي صمماً عن السماع النافع. فهم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أي: مهما رأوا من الآيات والدلالات والحجج البينات لا يؤمنوا بها، فلا فهم عندهم ولا إنصاف.

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ أي: يحاجونك ويناظرونك في الحق بالباطل، ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا الذي جئت به إلا مأخوذ من كتب الأوائل ومنقول عنهم.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ في معنى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ قولان:

أحدهما: أن المراد أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق وتصديق الرسول والانقياد للقرآن ﴿وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: ويبتعدون عنه، فيجمعون بين الفعلين القبيحين لا ينتفعون ولا يدعون أحداً ينتفع. وهذا القول أظهر ـ والله أعلم ـ وهذا اختيار ابن جرير.

والقول الثاني: روي عن ابن عباس قال: نزلت في أبي طالب، كان ينهى الناس عن النبي ﷺ أن يؤذي. وكذا قال عطاء بن دينار وغيره: أنها نزلت في أبي طالب. وقال سعيد ابن أبي هلال: نزلت في عمومة النبي ﷺ، وكانوا عشرة، فكانوا أشدَّ الناس معه في العلانية، وأشدَّ الناس عليه في السر. رواه ابن أبي حاتم. ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وما يهلكون بهذا الصنيع ولا يعود وباله إلا عليهم، وهم لا يشعرون. ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠)﴾.

يذكر تعالى حال الكفار إذ وُقفوا يوم القيامة على النار، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال، فعند ذلك قالوا: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يتمنون أن يُرَدُّوا إلى الدار الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً ولا يكذبوا بآيات ربهم ويكونوا من المؤمنين. قال الله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ أي: بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب و المعاندة، وإن أنكروها في الدنيا أو في الآخرة، كما قال قبل هذا بيسير: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ =

يجدون أحداً، فيقولون: ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ [الأعراف: ٣٧] أي تاهوا منا لا نعرف

= رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ . . . ﴿٢٤﴾﴾. ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءتهم به الرسل في الدنيا، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه، كما قال تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾. وقال تعالى مخبراً عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾. ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين الذين كانوا يظهرون للناس الإيمان ويبطنون الكفر، ويكون هذا إخباراً عما يكون يوم القيامة من كلام طائفة من الكفار، ولا ينافي هذا كون هذه السورة مكية، والنفاق إنما يكون من بعض أهل المدينة، ومن حولها من الأعراف، وقد ذكر الله وقوع النفاق في سورة مكية، وهي العنكبوت، فقال: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾[العنكبوت: ١١] وعلى هذا فيكون هذا إخباراً عن حال المنافقين في الدار الآخرة حين يعاينون العذاب، فظهر لهم حينئذ غب ما كانوا يبطنون من الكفر والنفاق والشقاق. والله أعلم. وأما معنى الإضراب في قوله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم﴾ فهم ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبةً ومحبةً في الإيمان، بل خوفاً من العذاب الذي عاينوه جزاءً على ما كانوا عليه من الكفر، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار. ولهذا قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: في تمنيهم الرجعة رغبةً ومحبة في الإيمان. ثم قال مخبراً عنهم أنهم لو ردوا إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه من الكفر والمخالفة ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: في قولهم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أي: لعادوا لما نهوا عنه، ولقالوا: إن هي إلا حياتنا الدنيا، أي: ما هي إلا هذه الحياة الدنيا لا معاد بعدها، ولهذا قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾. ثم قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: أوقفوا بين يديه قال: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾؟ أي: أليس هذا المعاد بحق، وليس بباطل كما كنتم تظنون؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بما كنتم تكذبون به، فذوقوا اليوم مسّه ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن خسارة من كذب بلقاء الله، وعن خيبته إذا جاءته الساعة بغتة، وعن ندامته على ما فرط من العمل، وما أسلف من قبح الفعل، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ وهذا الضمير يحتمل عوده على الحياة، وعلى الأعمال، وعلى الدار الآخرة، أي: في أمرها. وقوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي: يحملون.

وقال قتادة: يعملون. وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي: إنما غالبها كذلك: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

obeikandl.com

مكانهم ولا يعرفون مكاننا، ولو أن هؤلاء الذين زعموهم آلهة كانت لهم ألوهية أو شيء من الألوهية ما تركوهم في هذا الموقف، وهكذا يريهم اللّه أعمالهم حسرات عليهم، ويفضحهم أمام خلقه جميعاً، وأمام أنفسهم حتى لا يستطيعوا المجادلة عند الحساب، فلا يستطيع أولئك الذين حرّفوا منهج اللّه أن يقولوا: إن الرسل قد بلّغونا المنهج محرّفا وليس لنا ذنب حتى يحاسبنا اللّه، أو يقول أولئك الذين عبدوا غير اللّه أن هذه الأشياء التي عبدوها هي التي ادّعت الألوهية، وأنهم لا ذنب لهم في ما حدث، بل يظهر أمام الجميع أن هؤلاء الكفار هم الذين حرّفوا، وهم الذين اخترعوا هذه الآلهة، وهم الذين وضعوا منهجاً على هواهم، وأن المسألة كلها من أنفسهم، وأنهم مسؤولون عما اقترفوه، وأن الحساب بالنسبة لهم عدل.

openikandl.com

المواجهة والخصومة

إن المشركين الذين اتخذوا من دون الله تعالى آلهة، سيحشرون يوم القيامة؛ فمنهم من عبده الناس، وهو لا يدري عن عبادتهم شيئاً، فالشمس، والقمر، والنجوم، والأحجار، والأشجار، وغيرها لم يطلبوا من أحد أن يعبدهم، ولم يرسلوا رسلاً إلى البشر ليقولوا لهم اعبدونا، أو ليبلغوهم بمنهج عبادةٍ.

فالشمس لم ترسل رسولاً مثلاً إلى من عبدوها؛ لتدعي أنها إله، وتطلب منهم أن يسجدوا لها، وتقول لهم: إن منهجي كذا وكذا، وكذلك النجوم والأحجار.

لذلك فإن هؤلاء جميعاً يتبرأون يوم القيامة من أولئك الذين اتبعوهم، ويتجهون لله سبحانه وتعالى يسبحونه، بل إن الأحجار التي عبدها الناس يجعلها الله سبحانه وتعالى وقوداً للنار يوم القيامة، وتكون الأحجار سعيدة بذلك، وهي تحرق من عبدها من دون الله وتذيقه العذاب.

كما أن هناك من الرسل من اتخذهم الناس آلهة، فيؤتى بهم يوم القيامة ليتبرأوا أمام الأشهاد، أمام خلق الله كلهم، من الذين اتبعوهم واتخذوهم آلهة؛ وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى لعبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

بماذا يرد عيسى ابن مريم؟ يقول: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، أي: تعاليت يا رب وتنزهت عن هذا، فنحن جميعاً عبيدك نسبح بحمدك، ثم يكمل عيسى ابن مريم كلامه: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ . . . (١١٧)﴾.

وهكذا يتبرأ عيسى عليه السلام من أولئك الذين اتخذوه إلهاً، ويقول: إن الله سبحانه وتعالى يعلم ما نعلن وما نخفي، فإن كان عيسى عليه السلام قد قال هذا علناً، فقد علمه الله سبحانه وتعالى، وإن كان قد قاله سرًّا في نفسه فقد علمه

obeikandi.com

اللّه سبحانه وتعالى لأنه يعلم ما تخفي الصدور، ويكون هذا على مشهد من جميع خلق اللّه منذ عهد آدم إلى يوم القيامة، وهم يشاهدون كل ما يحدث ويتابعونه لتكون الفضيحة أمام كل خلق اللّه.

إذن.. اللّه تعالى قادر على أن يجعل خلقه جميعاً يرون كل ما يحدث دون عناء أو تعب، كما ترى الدنيا كلها الشمس دون عناء أو تعب، وكما يرى الناس اليوم باستخدام قوانين اللّه التي وضعها سبحانه وتعالى في الكون، ليروا جميعاً في وقت واحد، وفي أماكن متفرقة، حدثاً يقع في العالم في نفس لحظة وقوعه عن طريق الأقمار الصناعية، وإذا كانت هذه قدرة البشر الآن، فما هي قدرة البشر بعد سنوات، يتقدم فيها العلم، وإذا كان بمقدور البشر صنع ذلك؛ فما بالك بقدرة اللّه سبحانه وتعالى؟

وفي لقطة أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾.

اللّه سبحانه وتعالى يخاطب شياطين الجن فيقول لهم: لقد أخذتم نصيباً كبيراً من الإنس إلى جهتكم فأضللتموهم وأخذتموهم إلى طريق الفساد، واللّه سبحانه وتعالى حين يخاطب الجن ويقول لهم: ﴿ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ فالجن لا يردون، ولكن الذين يتكلمون هم الإنس الذين اتبعوا شياطين الجن؛ وذلك قول اللّه تعالى: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم﴾ أي: المتابعون لهم من شياطين الإنس: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٢٨].

إذن.. فالكلام هنا من الإنس أنفسهم، وأيضاً عن أوليائهم من الجن، إنهم يدافعون عن شياطين الجن الذين أخذوا كثيراً من الإنس إلى جانبهم، كيف ذلك؟ لأن اللّه سبحانه وتعالى أعطى الجن في تكوينهم ما لم يعطه للإنسان من ناحية التكوين، فجعل الجن يرون الإنس، بينما الإنس لا يرونهم؛ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وأعطى اللّه الجن أيضاً قوة أكثر من الإنس، لماذا؟ لأن الإنسان مخلوق من طين، فإمكانياته محدودة، فهو لا يستطيع أن يقوم بهذه المهمة، بينما الجن مخلوق من نار(١)، يستطيع أن ينفذ من الجدران والسواتر الحديدية، وأن يسافر وينتقل من مكان إلى آخر بسرعة هائلة.

---

(١) عن عائشة رضي اللّه تعالى عنها قالت: قال رسول اللّه ﷺ: «خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجان من نار، وخُلق آدم مما وصف لكم». =

ولذلك فإن المخلوق من نار، قانونه نافذ بطبيعة تكوين النار التي تشع فيخترق إشعاعها الجدران، بحيث تصل حراراتها إلى من يجلس وراء الجدار، هذه بعض قوانين الجن التي تختلف عن قوانين الإنسان. لذلك عندما قال سليمان عليه السلام: ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٣٨].

سكت الإنس الذين كانوا في مجلس سليمان، لأن نقل العرش من اليمن إلى مكان سليمان يحتاج إلى زمن وإلى قوة وإلى سرعة، وهذه لا تتوافر في الإنس بحكم خلقهم، ولذلك كان أول من تكلم هو عفريت من الجن، أما الإنسان فلم يدخل نفسه في تجربة يعلم أنه لا يستطيعها، فسليمان قد علم أن ملكة سبأ في طريقها إليه لتعلن إسلامها، وهو يريد من الذي يذهب ليأتي بالعرش من قصر ملكة سبأ أن يتميز أولاً بالسرعة، التي تتفوق على الإنسان بمراحل كثيرة، لأن هذا الذي سيذهب جالس مع سليمان، بينما ملكة سبأ في طريقها إلى سليمان، ولذلك فلابد أن يقطع المسافة من مكان سليمان إلى قصر ملكة سبأ، ثم يفكك العرش، ثم يحمله ويكون حريصاً عليه، ثم يأتي به إلى سليمان. كل هذا في وقت أقل من الذي ستقطع فيه بلقيس ملكة سبأ المسافة بينها وبين سليمان، والتي كانت قد قطعت بالفعل جزءاً من الطريق.

لم يتكلم الإنسان ولا الجن العادي، وإنما تكلم عفريت من الجن، مما يدلنا على أن الجن غير متساوين في القدرة، بل إنهم متفاوتون فيها، وعفريت الجن، هو أقوى الجن؛ وقال: ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾، ومقام سليمان أو مجلسه لا نعرف زمنه، ساعة، أو ساعتين، أو أكثر، ولكن العفريت الذي يتكلم يعرف الزمن، وهنا: ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل: ٤٠]، أي قبل أن تطرف عينك، وقبل أن يقول سليمان نعم، وجد عرش بلقيس أمامه: ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ ﴾، أي أن المسألة لم تتحمل حتى مجرد الكلام، وهكذا إذا كان الله قد خص الجن بقوانين متفوقة، فقد أعطى بشراً من خلقه قدرة أكبر تُخضع الجن لها، ذلك أن التميز ليس بالتكوين فقط، ولكن بإرادة المكون.. الخالق سبحانه[1].

= أخرجه مسلم [٢٩٩٦/ ٦٠]، وأحمد في المسند [٦/ ١٥٣/ ١٦٨]، وابن حبان في صحيحه [٦١٥٥].

(١) قال الله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ =

وهكذا يريد الحق سبحانه وتعالى، وهو يعرض علينا مشاهد القيامة، أن

= طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)﴾ [النمل].

قال ابن كثير: قال محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان قال: فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان؛ قالت: قد والله عرفت ما هذا بملك، وما لنا به من طاقة، وما نصنع بمكابرته شيئاً، وبعثت إليه، إني قادمة عليك بملوك قومي، لأنظر ما أمرك وما تدعونا إليه من دينك، ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت تجلس عليه، وكان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ فجعل في سبعة أبيات بعضها فى بعض ثم أقفلت عليه الأبواب ثم قالت لمن خلفت على سلطانها احتفظ بما قبلك وسرير ملكي، فلا يخلص إليه أحد من عباد الله، ولا يرينه أحد حتى آتيك ثم شخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف قَيْل، من ملوك اليمن، تحت يدي كل قيل ألوف كثيرة، فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل يوم وليلة، حتى إذا دنت جمع من عنده من الجن والإنس ممن تحت يده فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ وهكذا قال عطاء الخرساني والسدي وزهير بن محمد ﴿ قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ فتحرم على أموالهم بإسلامهم ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ قال مجاهد أي: مارد من الجن، قال شعيب الجبائي وكان اسمه كوزن، وكذا قال محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان، وكذا قال أيضاً وهب بن منبه قال أبو صالح: وكان كأنه جبل ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنه: يعني: قبل أن تقوم من مجلسك، وقال مجاهد: مقعدك، وقال السدي وغيره: كان يجلس للناس للقضاء والحكومات وللطعام من أول النهار إلى أن تزول الشمس ﴿ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾ قال ابن عباس: أي قويٌّ على حمله، أمين على ما فيه من الجوهر، فقال سليمان عليه الصلاة والسلام: أريد أعجل من ذلك.

ومن هـهـنـا يـظـهـر أن سـلـيـمـان أراد بإحـضـار هـذا الـسـريـر إظـهـار عـظـمـة مـا وهب الله له من الملك وما سخر له من الجنود الذي لم يعطه أحداً قبله، ولا يكون لأحد من بعده، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها لأن هذا خارق عظيم أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه، هذا وقد حجبته بالأغلاق والأقفال والحفظة، فلما قال سليمان أريد أعجل من ذلك ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ قال ابن عباس: وهو آصف كاتب سليمان، وكذا روى محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان أنه آصف بن برخياء، وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم، وقال قتادة: كان مؤمناً من الإنس واسمه آصف، وكذا قال أبو صالح والضحاك وقتادة أنه كان من الإنس، زاد قتادة من بني إسرائيل، وقال مجاهد: كان اسمه أسطوم، وقال قتادة في رواية عنه: كان اسمه بليخا، وقال زهير بن محمد: هو رجل من الإنس يقال له: ذو النور. وزعم عبد الله بن لهيعة أنه الخضر وهو غريب جداً، وقوله: ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ أي ارفع بصرك وانظر مد بصرك مما تقدر عليه فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك، وقال وهب بن منبه: =

يقول لنا: أنه أعطى الجن ميزات كثيرة، وأنهم استخدموا هذه الميزات في التكوين في الشر والإضلال، حينئذ يرد أولئك الذين اتبعوا شياطين الجن: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

ما معنى هذا؟ هل استمتع الجن بالإنس، أم استمتع الإنس بالجن؟ كلاهما استمتع بالآخر، استمتع الجن بالإنس في إعانته على المعاصي، ومادامت شياطين الجن تعين الإنسان على المعصية، فهذا استمتاع لها لأن العداوة بين شياطين الجن والإنس منذ لحظة خلق آدم، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

فكأن إبليس وذريته عليهم لعنة الله مُتعتهم في الحياة أن يقودوا الإنسان

= امدد بصرك فلا يبلغ مداه حتى آتيك به. فذكروا أنه أمره أن ينظر نحو اليمن التي فيها هذا العرش المطلوب، ثم قام فتوضأ ودعا الله تعالى.
قال مجاهد: قال: يا ذا الجلال والإكرام، وقال الزهري: قال: يا إلهنا وإله كل شيء، إلهاً واحداً لا إله إلا أنت ائتني بعرشها، قال: فمثل بين يديه. قال مجاهد وسعيد بن جبير ومحمد بن إسحاق، وزهير بن محمد وغيرهم. لما دعا الله تعالى وسأله أن يأتيه بعرش بلقيس، وكان في اليمن، وسليمان عليه السلام ببيت المقدس، غاب السرير وغاص في الأرض، ثم نبع من بين يدي سليمان.
وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لم يشعر سليمان إلا وعرشها يُحمل بين يديه. قال: وكان هذا الذي جاء به من عباد البحر، فلما عاين سليمان وملأه ذلك ورآه مستقرًا عنده ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ أي: هذا من نعم الله علي ﴿لِيَبْلُوَنِي﴾ أي: ليختبرني ﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ كقوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، وكقوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ أي: هو غني عن العباد وعبادتهم، كريم أي: كريم في نفسه وإن لم يعبده أحد فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد، وهذا كما قال موسى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].
وفي صحيح مسلم: «يقول الله تعالى: يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»(١).
تفسير ابن كثير [٣/٣٥١:٣٥٢].

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [٢٥٧٧/٥٥] عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه.

للمعصية والهلاك؛ تماماً كما يكون لك عدو ويدبر لك مكيدة.

إذن.. حينما يقود الشيطان الإنسان إلى النار، يكون في قمة السعادة والاستمتاع، لأن هذه هي مهمة الشيطان، وقديماً قال أبوهم إبليس متوعداً بني آدم: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

ولكن ماذا عن استمتاع الإنس بالجن؟ لأن الجن قد زين للإنسان شهواته، وذلك أن شياطين الإنس لا يعيشون بمنهج، ولكنهم يجرون وراء شهواتهم فيأخذون المال الحرام، ويعتدون على حرمات الناس، ويفعلون كل ما تسوله لهم أنفسهم من ظلم وفساد، وفي هذا يكون الإنس الذي اتبع وحي شياطين الجن قد استمتع بحياته كلها، ففعل ما يريد دون وازع من ضمير أو خلق أو دين.

وهكذا يكون استمتاع الإنس بالجن استمتاعاً عاجلاً لشهوات النفس يعقبه حسرة وندم، ولذلك فإن أولئك الذين يشتغلون بالسحر والجن يريدون أن يحققوا شهوات لأنفسهم فوق قدراتهم، ولكنها تنقلب وبالاً عليهم مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

أي: أتعبوهم، والعجيب أنك تجد أن أولئك الذين يسخرون الجن يأخذون رزقهم من أولئك الذين لا يعلمون عن السحر شيئاً، ولا تجد من يشتغل بهذه المسائل إلا وفي ذريته شذوذ: الأعور، والأعرج، والأكتع؛ لماذا؟ ليلزم كل إنسان أدبه وقدر ربه فيه ولا يتكبر، تماماً كالذي يستعين «بالفِتِوّات» ليسيطر على الناس ثم إذا ضعف ينقلب عليه الحي الذي كان يسيطر عليه فيذيقه الهون والعذاب.

إذن.. فالإنس يردون: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٢٨].

يعني: عندما كنا على قيد الحياة، ﴿ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾، فاستمتع الجن بأنه قاد الإنسان إلى المعصية، واستمتع الإنسان بالغوص في الملذات والحرام حتى جاء الأجل، فماذا وجدوا؟ قال لهم الحق سبحانه وتعالى: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾.

أي أن المستمتع الأول والمستمتع الثاني في النار.

❁ ❁ ❁

اجتماع حول جهنم

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ﴾ [مريم].

هذا مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة، فيه الكفار والشياطين جاثون حول جهنم من الذل ومن الهوان، ثم ينزع الله تعالى من وسط هؤلاء ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ وهم: أئمة الكفر، أولئك الذين كانوا يحاربون دين الله في الأرض، ويسخرون من المؤمنين، ويسفهون منهج الله، وهم في ذلك يستخدمون كل ما لديهم من قوة، وكل ما يملكون من وسائل، فالإنسان حين يكون شديداً يجمع كل قواه لمواجهة الحدث الذي يشغله، وهؤلاء في الدنيا كانوا أشداء على كل من آمن بدين الله، يستخدمون كل ما في مقدورهم من وسائل لمحاربة هذا الدين، والحقيقة أن الكفار هم أغبى خلق الله، فهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً لأنفسهم حين يلمزوا المؤمنين والمؤمنات أو يسخروا منهم، تصور لهم عقولهم المريضة أنهم بهذا الفعل يصدون الناس عن دين الله تعالى، ولكن القهار سبحانه يستخدمهم لإثبات صدق رسله بنفس الوسيلة التي تصوروا أنها لهم.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [المطففين].

هذه صورة يعطيها الله سبحانه وتعالى لنا عن موقف الكفار في الدنيا، إنهم يسخرون من المؤمنين، ويتغامزون عليهم، إلى آخر ما نراه في هذه الأيام مما يحدث، وهم يحسبون أنهم يحاربون منهج الله.

ولكن الحقيقة غير ذلك تماماً، فهؤلاء الكفار إنما يثبتون منهج الإيمان، ويكونون هم أنفسهم دليلاً على صدق القرآن، وأنه منزل من عند الله سبحانه وتعالى، لأن الله أخبرنا في كتابه العزيز، بأن هؤلاء سيسخرون من المؤمنين، وسيتغامزون عليهم في الدنيا، ولو أن لديهم فطنة لما اتخذوا هذا السلوك، وحينئذ كنا سنقول: إن القرآن قد قال لنا: إن المجرمين والكفار سيسخرون من الذين آمنوا في الدنيا، ولم يسخر منا أحد، ولم يتغامز علينا أحد، ولكن كونهم

سخروا وتغامزوا قد أعطونا الدليل على صدق منهج الله، لأنهم فعلوا ما أنبأنا الله أنهم سيفعلونه، وبذلك كانوا هم أنفسهم دليلاً على صدق المنهج، لأنهم جاؤوا وفعلوا ما أخبرنا الله أنهم سيفعلونه، ولا يجب أن يضيق صدر المؤمن بهذه الأفعال، بل كلما تحدث.. يقول المؤمن: سبحان الله، لقد أخبرنا الله أنهم سيفعلون وفعلوا.

فصدق الله العظيم، وأصبح هؤلاء المجرمون مثبتين للإيمان وهم يحسبون أنهم سيهدمونه؛ تماماً كقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ [الكهف: ٥١].

فإذا جاء المضلون ليحدثونا بنظريات تتعارض مع كلام الله عن خلق السموات والأرض وخلق الإنسان، نقول: لو لم يأت هؤلاء لقلنا أخبرنا الله عن المضلين الذين سيجادلون في الخلق.. فأين هم؟ ولكن كونهم جاؤوا وضللوا الناس بما قالوه؛ من أن الإنسان أصله قرد، وأن السموات والأرض أصلها كذا وكذا، محاولين بذلك التشكيك في منهج الله؛ نقول لهم: لقد ثبّتم المنهج في قلوبنا، لأن الله قد أخبرنا بما ستفعلونه، وجئتم أنتم تصديقاً لمنهج الله وفعلتموه، فشكراً لكم أنكم كنتم دليلاً على صدق المنهج.

obeikandl.com

تزييف الحق وتزيين الباطل

يثور جدل في الآخرة بين الذين أشركوا، والذين زينوا لهم الباطل، فيقول الذين أشركوا: ﴿كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾، أي: تلبسون المعصية ثوب الحلال زيفاً، فيرد عليهم أولئك الذين أضلوهم: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٢٩].

أي: أنه لو كان الإيمان في قلوبكم لاتبعتم منطق الإيمان، وما استمعتم إلينا، وكنتم تأخذون علة تنفيذ الأمر أو سبب تنفيذ الأمر أنه صادر من اللّه، دون أن تبحثوا عن أسباب أخرى، فيكفي أن اللّه سبحانه وتعالى قد قال لنطيع، والذين يحاولون الآن أن يبرروا تحريم لحم الخنزير بأنه يأتي بالدودة الشريطية، وبأنه يسبب السرطان وغيره، نقول لهم: لو امتنعنا من أجل هذا المنطق فقط ما كنا مؤمنين، ولكننا لا نأكل لحم الخنزير لأن اللّه قد حرّمه، ولو كان لحم الخنزير يشفي كل أمراض الدنيا ما أكلنا منه، لأنه ما دام اللّه تعالى قد حرّمه فنحن نطيع أمر اللّه سبحانه، ولا ننتظر حتى نعرف الحكمة من التحريم لكي نمتنع.

فالمسلمون الأوائل لم يكونوا يعرفون تلك الأمراض القاتلة التي يسببها لحم الخنزير، ولكنهم امتنعوا عنه لأن اللّه حرّمه، وكان كافياً جداً في منطق الإيمان أن يكون الامتناع بتحريم اللّه له، دون أن يجهدوا أنفسهم في معرفة العلة من التحريم.

ولو أخذنا كل شيء بمنطق أننا لا بد أن نعرف العلة والسبب، لكان هذا منطقاً دنيوياً، وليس عبادة للّه ولا يدخل في منطق الإيمان، واللّه سبحانه وتعالى يريدنا مؤمنين به إلهاً، ويكفينا أن يقول افعل لكي نفعل.

إذن.. فهؤلاء الذين يطيعون منطق الإيمان المعكوس من بعض الناس، ليحلوا ما حرم اللّه تحت أي ادعاء من الادعاءات، نقول لهم: إن هذا المنطق هو الذي يتخذه بعض مدعي النبوة وبعض المذاهب الخارجة عن الدين، فهم يحلون ما حرمه اللّه تحت ادعاءات مختلفة، وأتباعهم هم أولئك الذين في قلوبهم زيغ، وميل للمعصية، وحب لاتباع الشهوة، لذلك لا تجد مذهباً من هذه المذاهب

المنحرفة إلا وهو قائم على تحليل ما حرمه اللّه، وبمنطق الإيمان المزيف.

فنجد مثلاً البهائية والقاديانية وغيرهما من المذاهب التي تريد أن تحل ما حرم اللّه، إنما تقوم بذلك بادعاءات زائفة، وتفسيرات منحرفة، ولذلك فهي تحاول أن توهم الناس بأنها أكثر فهماً للقرآن من رسول اللّه ﷺ الذي نزل عليه هذا القرآن، أو من المسلمين الأوائل، ولا نجد مذهباً من هذه المذاهب يجاهر بالكفر، أو يعلن أنه ابتعد عن الإيمان، بل كلها تدعي زيفاً أن خطها هو الإيمان الصحيح، وهذا معنى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾.

أي: كنتم تزيفون لنا الأحكام، فتحلون الحرام، وتحرمون الحلال، ويفضح اللّه سبحانه وتعالى أتباع هؤلاء في قوله تعالى: ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ [الصافات: ٣٠].

أي: أن الميل للمعصية والكفر كان في قلوبكم، فلما قالوا لكم ما قالوه لم تتبعوهم بمنطق الإيمان، بل اتبعتموهم لأن كلامهم صادف هوى في نفوسكم، ولولا أنكم طاغون منذ البداية ما استطاع أحد أن يستميلكم تحت أي شكل من الأشكال.

openkandil.com

حوار الضعفاء.. والمستكبرين

مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة يوضحه الحق سبحانه وتعالى، وهو الحوار الذي سيدور بين الكافرين في النار: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾.

فالحوار هنا بين الكافرين، جزء منهم هم المستضعفون الذين كانوا تابعين، وجزء منهم هم المستكبرون أو السادة الذين أغروا هؤلاء المستضعفين بالمعصية وفعل السيئات، ماذا قالوا لهم؟ قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

أي: نحن كنا نتبعكم في الدنيا، وكنا نفعل ما تأمروننا به، وننفذ كل ما تطلبونه منا، فهل تستطيعون أن تنجونا اليوم من عذاب النار؟ هذا مظهر من مظاهر العجز البشري يوم القيامة، يقصه الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، لنعرف أن هؤلاء الذين يغووننا للمعصية أعجز من أن ينفعونا يوم القيامة، أو يخففوا عنا يوماً من عذاب الله.

هؤلاء المتكبرون والسادة مهما كان لهم من سلطان وقهر في الدنيا، فإن ذلك لن يغني عنهم شيئاً في الآخرة، ولن يعطيهم قدرة ولا قوة، وفي ذلك نجد أن بعض الناس يتجرأون على دين الله بالباطل، ويفتون بغير الحق، وإذا ما عارضهم من عنده شيء من العلم، أو بقية من فطرة صحيحة، يقولون له: افعل هذا وأنا سأحمل وزرك يوم القيامة لو كان هناك وزر!! ويكون هذا الكلام بالطبع دفعاً للنفس المترددة في ارتكاب المعصية، فإياكم أن تصدقوا هذا الكلام.

صحيح أن هؤلاء الذين يغرونك بالمعصية سيحملون وزراً فوق أوزارهم أو معاصيهم، ولكنك أنت مرتكب المعصية عليك إثم، وعليك عقاب، وستحمل وزرك يوم القيامة، ولذلك فإياك أن تصدق من يقول لك: افعل هذا والإثم علي، أو افعل هذا وسأحمل وزرك، بل على مشهد من أهل الموقف جميعاً، لن يستطيع هؤلاء الذين زينوا المعصية للآخرين أن يحملوا أوزار الذين ارتكبوا المعصية، ويكون أولئك الذين ارتكبوها بلا معصية، بل هذا يحمل وزر ما فعله

كاملاً، والآخر يحمل وزره ووزر الذي أضله. هؤلاء عندما يقفون أمام اللّه للحساب: ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ ﴾ [سبأ: ٣١].

أي: هذا يلقي اللوم على هذا، وهذا يلقي اللوم على هذا حتى تصبح الفضيحة على رؤوس الأشهاد، وترى المحبة التي كانت بينهم على الشهوات قد ذهبت وانتهت، فهناك نوعان من المحبة في الدنيا: أناس أحبوا بعضهم في اللّه، وللّه، يذهبون للمسجد معاً، ويتدارسون العلم معاً، ويقرأون القرآن معاً، وإذا ارتكب أحدهم معصية، نصحه الآخرون ومنعوه.

ومحبة أخرى بين الناس الذين يلتقون على الشهوات، يشجع بعضهم البعض على المعصية في مجالسهم، هؤلاء أخلاء وهؤلاء أخلاء، ولكن الذين اجتمعوا على الإثم والمعصية إذا وقفوا أمام اللّه صاروا أعداء، هذا يلقي اللوم على ذاك، وذاك يلقي اللوم على الآخر، فالمحبة التي كانت بينهم على الشهوات انتهت، يتلاومون ويحاول كل منهم أن يلقي باللوم على الآخر؛ ويقول الضعفاء فيهم للذين استكبروا: ﴿ لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ: ٣١].

هنا يحاول كبراء القوم وسادتهم أن ينفوا عن أنفسهم تهمة أنهم أضلوا المستضعفين فيقولون لهم: لو أن في قلوبكم هداية لاهتديتم.

ولكن ما معنى الهداية؟ الهداية هي أقصر طريق يؤدي إلى الغاية، واللّه سبحانه وتعالى قد أوجد في الدنيا نوعين من الهداية: هداية دلالة: وهذه للناس جميعاً، للمؤمن والكافر، أي أن اللّه سبحانه وتعالى: يبين للناس؛ كل الناس، طريق الهداية في منهجه، ولذلك أرسل سبحانه الرسل، وأنزل الكتب لئلا يكون للناس على اللّه حجة، ليس هذا فقط، بل إن اللّه تعالى يرسل على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها[(١)].

والهداية الثانية: وهي الزيادة في الهداية للذين آمنوا باللّه تعالى، وصدقوا برسله، فيزيدهم اللّه هدى ويعينهم عليه؛ ويحببهم في الإيمان، ويثبت قلوبهم عليه مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾[(٢)] [محمد: ١٧].

---

(١) رواه أبو داود [٤٢٩١] عن أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٣٦٠٦].

(٢) قال العلامة ابن القيم: فالهداية: هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة. ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل. فإذا حصل البيان والدلالة =

هنا الحديث بين الذين استكبروا والذين استضعفوا عن هداية الدلالة، فهم يقولون لهم: ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ﴾ [سبأ: ٣٢].

▪ والتعريف، ترتب عليه هداية التوفيق. وجَعْل الإيمان في القلب وتحبيبه إليه، وتزيينه في قلبه، وجعله مُؤثراً له، راضياً به، راغباً فيه. وهي هدايتان مستقلتان، لا يحصل الفلاح إلا بهما، وهما متضمنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلاً وإجمالاً، وإلهامنا له، وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهراً وباطناً. ثم خلق القدرة لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم. ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة.

ومن ههنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم. وما لا نريد فعله تهاوناً وكسلاً، مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك. وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله، فأمر يفوته الحصر. ونحن محتاجون إلى الهداية التامة. فمن كملت له هذه الأمور، كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام.

وللهداية مرتبة أخرى ـ وهي آخر مراتبها ـ وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة، وهو الصراط الموصل إليها. فمن هُدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، هُدي هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته ودار ثوابه. وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار، يكون ثبوت قَدَمه على الصراط المنصوب على مَتْن جهنم. وعلى قدر سيره على هذا الصراط، يكون سيره على ذلك الصراط.

فمنهم من يمركالبرق، ومنهم من يمر كالطَّرْف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الركاب، ومنهم من يسعى سعياً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم المخدوش المسلَّم، ومنهم المكردَس[1] في النار. فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا، حَذْو القُذَّة[2] بالقذة جزاء وفاقاً: ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ولينظر الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم، فإنها الكلاليب[3] التي بجَنْبتي ذلك الصراط، تخطفه وتعوقه عن المرور عليه: فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦]. فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير، والسلامة من كل شر.

بدائع التفسير [١/١١٦: ١١٧].

(١) الكردسة: الوثاق. والرجل المكردس: الذى جُمعت يداه ورجلاه وأُلقى إلى موضع.
لسان العرب [٦/١٩٦]

(٢) القذة: ريشة الطائر والنسر والصقر، بعد تسويتها وإعدادها لتُرَكَّبَ فى السهم.
الوسيط [٧٢١].

(٣) جمع كلُّوب وهو حديدة معطوفة الرأس يُعلق فيها اللحم وترسل فى التنور.
شرح النووى على مسلم [٢/٣٠].

أي: أن الله سبحانه وتعالى قد بين لكم طريق الهداية ودلكم عليه، ولو أنكم أردتم أن تسيروا فيه ما كان في استطاعتنا أن نخرجكم عنه أو نمنعكم منه، ذلك لأننا مهما فعلنا فإن قوة الإيمان في قلوبكم، كانت ستجعلكم تصرون على أن تسيروا في طريق الهدى، وكان الله سيعينكم على ذلك.

﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ [سبأ: ٣٢]. أي أنتم بطبيعتكم وحبكم للشهوات كنتم تريدون الضلالة، وكنتم تريدون المعصية، فما إن أغريناكم حتى انطلقتم إلى طريق الشهوات والمعاصي بحبكم للشهوات ورغبتكم فيها، وإلا لو كان في قلوبكم هداية ما سمعتم كلامنا واتبعتمونا.

ويرد الذين استضعفوا عليهم في يأس وحسرة: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

أي: إنكم كنتم تقعدون لنا ليلاً ونهاراً لتزينوا لنا المعصية، وتزينوا لنا عبادة غير الله، أنتم الذين كنتم ليلاً ونهاراً تأتون إلينا تعدوننا بالمال لنكفر، وتعدوننا بالمكافآت لنرتكب المعاصي، وتبينون لنا ليلاً ونهاراً طرق الإغواء، ولا تملون أبداً حتى استجبنا لإغوائكم وعصينا، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ [سبأ: ٣١].

OpenKandl.com

الشيطان خطيباً!

قال اللّه تبارك وتعالى واصفاً الحالة التي سيكون عليها الشيطان وتابعوه، وكيف سيتبرأ الشيطان منهم، وأنه لا حول له ولا قوة: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

إن اللّه سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا الصورة كاملة في يوم الحساب، فشياطين الجن وشياطين الإنس قالوا: إنهم استمتعوا ببعضهم في الحياة الدنيا، فقضى اللّه بأن النار هي مصيرهم ومثواهم، فعندما قُضي الأمر، التفت شياطين الإنس إلى إبليس الذي قادهم إلى هذه الهاوية، التفتوا إليه يستنجدون به من النار التي سيقذفون فيها؛ ماذا قال إبليس؟ قال الحقيقة، لأن حياة الخداع قد انتهت، وقد أصبحنا في مرحلة اليقين، لم يعد هناك ظن ولا غيب، فقد كشف اللّه حجب الغيب للناس، وانتهت مهمة إبليس، فإبليس طلب من اللّه سبحانه وتعالى أن يمهله إلى يوم البعث حين قال لعنة اللّه تعالى عليه: ﴿فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [ص: ٧٩]، أي: يا ربي أعطني مهلة إلى يوم البعث، قبل أن أخلد في العذاب، وذلك حين رد إبليس الحكم على اللّه تعالى؛ يوم قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦]. وقال: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾(١) [الإسراء: ٦١].

إذن.. هو قد رد الأمر على اللّه. ومن ذلك يجب أن نأخذ مبدأ إيمانيًا هاماً بالنسبة لأولئك الذين لا يستطيعون أن يحملوا أنفسهم على منهج اللّه، فمن الخير لهم أن يقولوا: إن منهج اللّه حق، ولكننا لا نستطيع أن نحمل أنفسنا على المنهج، أما أن نرد الحكم على اللّه ونقول: إن الربا حلال، وإن قطع يد السارق حرام، نقول لكل من ينهج هذا السلوك: لا ترد الحكم على اللّه فتكون في صف

(١) راجع ذلك في قصة نبي اللّه آدم عليه السلام وهي ضمن المجلد الأول من كتاب: «قصص الأنبياء» للشيخ الإمام، وهي درة فريدة في موضوعها.

إبليس مطروداً من رحمة الله، ولكن قل: إن كل ما في منهج الله حق، ولكنني لا أستطيع أن أحمل نفسي على هذا الأمر، أو أن الله يتوب على من فعل كذا أو كذا، فبدلاً من أن تكون كافراً إن رددت الحكم على الله، تكون عاصياً إن أقررت بذنبك، وبخطئك، ويمكن أن تستغفر لمعصيتك فيغفر لك الله، وأن تتوب منها فيتوب الله عليك، أما أن ترد الحكم على الله فهذا كفر.

إذن.. فقد انتهت المهلة التي أعطاها الله سبحانه وتعالى لإبليس، وجاء اليوم الذي يحاسب فيه، ولم تعد تفيده عداوته لآدم شيئاً، فلم يعد هو قادراً على غواية الإنسان، ولم يعد الإنسان مخدوعاً فيه، انتهى كل هذا. لأن الحياة أصبحت غير الحياة، ولم يعد الشيطان يستطيع أن يغوي أحداً في يوم البعث، فها هي النار والجنة والجزاء والحساب، فلم يعد أمام الشيطان إلا أن يقول الحق، لأنه لو كذب فإن كل ما هو حادث يكذبه، ولم يعد الموقف يسمح بالكذب، والشيطان يرى جهنم التي سيلقى فيها ويخلد إلى الأبد، في هذا الموقف الرهيب لا يستطيع الإنسان أن يقول إلا الصدق، تماماً كساعة تنفيذ حكم الإعدام على القاتل، وهو يقاد إلى المشنقة، هل في هذه الحالة هو صالح للكذب؟ إن هول الموقف يجعل لسانه لا يستطيع أن ينطق إلا بالحق، فما بالك وإبليس يواجه عذاب الله؟

إن قول الشيطان عليه لعنة الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. اعتراف منه بأن وعد الله تعالى كان حقًّا، ووعده الشيطاني الذي وعد به الإنسان ومناه كان كذباً، فإنه كان يمني الإنسان ويغويه بالأكاذيب ليرتكب المعاصي، ويزين له العمل السيء.

إذن.. الشيطان يعترف أنه ظل يغوي الإنسان حتى يعتقد زيفاً أنه سيفلت من عقاب الله، أو أن العذاب سيكون يسيراً، ثم بعد ذلك يدخل الجنة، وعندما يأتي الإنسان ليتوب، يأتي الشيطان فيقول له: أجّل التوبة حتى تتقدم بك السن، ثم بعد ذلك لا يمهل الأجل الإنسان، وكل إنسان لديه امتدادات في الأمل، بمعنى: أنه لو لم يحقق ذلك اليوم، فإنه سيحققه غداً، وهناك آمال كثيرة في حياة الناس قد لا تتحقق أبداً، ولكننا نعيش على أمل أنها ستحقق، ومهمة الشيطان أن يعطي للإنسان الأمل الكاذب، الأمل الذي لن يتحقق، فيغريه بالمعصية تلو المعصية ويهمس إليه أن الأجل لا يزال طويلاً، ويمنيه بأنه سيفعل كذا، وسيحقق كذا بالمال الحرام، وقد يكون هذا المال الحرام نكبة عليه وعلى أولاده فيصيبه

بالكوارث والأمراض، مما يجعلهم يتمنون لو أن هذا المال لم يأت.

ثم يقول الشيطان لأوليائه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

والسلطان هو: إما قوة القهر، أي: أن الشيطان ليس له قوة القهر ليقهر الإنسان على المعصية، أو إما أن يكون قوة مادية تقهر، بأن أطلب من إنسان أن يذهب إلى مكان فيرفض، فأقيده بالسلاسل، وأحمله إلى هناك، أو أن أطلب منه أن يقوم بعمل فلا يطيعني، فأحضر بعض أعواني بالعصى والسياط، فيلهبون ظهره حتى يفعل ما أريد.

أو يكون السلطان هو سلطان الحجة، كأن تأتي للإنسان وتظل تتحدث معه حتى تقنعه بأن يقوم بالعمل الذي تريده، فيقتنع اقتناعاً يجعله يفعل ما تريده منه، ولكن باختياره.

كلاهما سلطان، سواء اتبعت القهر، أو اتبعت الحجة والإقناع، والشيطان لا يستطيع أن يقهر إنساناً على معصية بالقوة والقهر، وليس للشيطان حجة ليقنع بها الإنسان، ليجعله يرتكب المعصية بحجة الإقناع، ولكن لا بد أن يوجد في داخل النفس أولاً هوى ورغبة للمعصية، فيأتي دور الشيطان فيزين له المعصية، كأن يكون الإنسان يريد أن يعيش عيشة مرفهة ولكنه لا يملك المال، حينئذ يأتي الشيطان ليزيد له المال الحرام؛ ويقول: إذا سرقت هذا المال فستحصل على عيشة الرفاهية التي تتمناها، ويظل يوسوس له بذلك حتى يسرق، أو يزين له جمال امرأة مستهترة، فيقع فيما حرمه الله تعالى عليه.

إذن.. الحق سبحانه وتعالى يخبرنا بمشهد الحوار الذي سيدور بين إبليس وشياطين الإنس، وأن الشيطان سيقول: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾.

أي: أنه لم يكن الشيطان يملك سلطان القهر، ولا سلطان الحجة ليجبرهم على المعصية، ولكن شهواتهم التي في داخلهم هي التي قادتهم لهذا، لذا عندما يتجه شياطين الإنس إلى إبليس باللوم، يقول: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾؛ أي: أنكم لو لم يكن عندكم حب للشهوات في داخل أنفسكم لما استطعت أن أغويكم، فلا توجهوا لي اللوم، بل وجهوه إلى أنفسكم.

ثم يقول: ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾. والصراخ معناه طلب النجدة من مصيبة لا يقوى الإنسان على مواجهتها بمفرده، بل يريد أن يعينه الآخرون على أن يواجهها، فإذا شب حريق في البيت مثلاً، وكان الحريق صغيراً يمكنني

أن أسيطر عليه، حينئذٍ لا أصرخ طالباً النجدة، وإنما أقوم بإطفاء الحريق بإمكانياتي مادمت واثقاً أنني أستطيع، ولكن إذا كان الحريق كبيراً لا أستطيع بقدراتي أن أتغلب عليه، فإنني في هذه الحالة أصرخ طالباً النجدة، لأنني أواجه حدثا أقوى من قدراتي، فأنا محتاج إلى عون الآخرين، وإذا هاجمني لص مثلاً في الطريق؛ فإذا كنت قويًا فأنا أقدر عليه وأمسك به وأقيده، ولكن إذا كان اللص أقوى مني، فأنا في هذه الحالة أصرخ طالباً النجدة حتى يعينني الناس عليه.

ونلحظ في حياتنا أنه حين يسمع الناس الصراخ فهم نوعان:

نوع لا يجد في نفسه القدرة على أن يعين على هذا العمل، فلا يذهب إلى الصارخ لينجده، كأن يهاجمني لص قوي وأصرخ طالباً النجدة، ويكون الذي يمر شيخ كبير لا يكاد يقوى على السير، حينئذ فإنه لا يجيب على صرختي، لأنه لا يستطيع أن يقدم العون، فهو شيخ ضعيف كبير السن.

ونوع آخر يجد في نفسه القدرة على النُصرة، فيأتي إليّ ويساعدني في أن أتغلب على ما ألم بي، حينئذ يُقال: أصرخه فلان، أي أزال سبب صراخه. والشيطان في يوم القيامة لا يستطيع أن يصرخ أحداً، أي: لا يستطيع أن ينقذ أحداً من النار، ولا يستطيع أحد أن يصرخه، أي: ينجيه من العذاب الذي ينتظره، لذلك يقول الشيطان للعاصين في ذلك المشهد من مشاهد يوم القيامة: لا أنا أستطيع أن أنجيكم من العذاب، ولا أنتم تستطيعون أن تنجوني من الخلود في النار، فكلانا عاجز أمام قدرة الله سبحانه وتعالى.

ليس هذا فقط بل إنه لعنة الله عليه يعترف ويقول: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

أي: إني كافر بما دعوتكم إليه، لأني أول من يعلم أن ما دعوتكم إليه زيف وكذب، ولكنكم ظلمتم أنفسكم، واتبعتم الزيف الذي قدمته لكم.

obeikandl.com

تطاير الكتب

يقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الانشقاق].

إن الحساب اليسير الذي سيحاسب به بعض المؤمنين لا يعتبر حساباً ولكنه عرض لرحمة الله، وتوضيح لتجليات لطف الله تعالى على المؤمنين، كأن يقال للمؤمن أنت فعلت كذا وكذا، وقد غفر لك الله، ولكن الحساب الحقيقي الذي يحدث فيه نقاش ومحاسبة، إنما معناه أن صاحبه مستحق للعقوبة، أما الحساب الذي ليس فيه مناقشة فإنه يكون يسيراً ويكون كله ثواباً ورحمة؛ كأن تقول لإنسان عزيز عليك أنت فعلت كذا وكذا، من باب العتاب الذي ليس فيه غضب ولا تقريع بل فيه تسامح.

أما من حقت عليه العقوبة من المؤمنين العاصين أو غير المؤمنين؛ فإن حسابه يكون رهيباً، والحساب يشتمل على ثلاثة أجزاء رئيسية، جزء مدون فيه العمل الصالح للعبد، وجزء مدون فيه المعاصي التي ارتكبها العبد، وجزء مدون فيه نعم الله عليه، لأن النعمة تدخل في الحساب، ونعم الله عادة تجبُّ كل العمل الصالح؛ فإذا حوسب العبد بعمله الصالح فقط دون رحمة الله وفضله، فإن نعمة واحدة من النعم التي أنعمها الله عليه ترجح بكل العمل الصالح الذي قدمه في الدنيا(١).

---

(١) أخرج البخاري [٤٦٨٥]، ومسلم [٢٧٦٨/ ٥٢] عن صفوان بن محرز قال: قال رجل لابن عمر رضي الله تعالى عنهما كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعته يقول: «يُدني المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه، فيقول هل تعرف؟ فيقول: ربِّ أعرفُ. قال: فإني سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم. فيعطي صحيفة حسناته، وأما الكفار والمنافقون، فينادى بهم على رؤوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على الله».

وفي رواية البخاري، قال في آخره: ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

❁❁❁

= ورواه ابن ماجه [١٨٣]، وابن حبان في صحيحه [٧٣٥٥].
وروي من حديث عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة خلا الله عز وجل بعبده، المؤمن، يوقفه على ذنوبه ذنباً ذنباً، ثم يغفر الله له لا يُطْلِعُ على ذلك ملكٌ مقرب، ولا نبيّ مرسل، وستر عليه من ذنوبه ما يكرهه أن يقف عليها، ثم يقول لسيئاته كوني حسنات»[١].
وخرج أبو القاسم إسحاق بن إبراهيم الختلي في كتاب الديباج له، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: يدني الله العبد منه يوم القيامة ويضع عليه كنفه، يستره من الخلائق كلها، ويدفع إليه كتابه في ذلك الستر، فيقول له: اقرأ يا ابن آدم كتابك. قال: فيمر بالحسنة فيبيض لها وجهه، ويمر بالسيئة فيسود لها وجهه.
قال: فيقول الله تعالى له: أتعرف يا عبدي؟
قال: فيقول: نعم يا رب أعرف.
قال: فيقول: إني أعْرفُ بها منك، قد غفرتها لك.
قال: فلا تزال حسنة تقبل فيسجد، وسيئة تغفر فيسجد، فلا يرى الخلائق منه إلا ذلك، حتى ينادي الخلائق بعضُها بعضاً: طوبى لهذا العبد الذي لم يعص قط ولا يدرون ما قد لقي فيما بينه وبين الله تعالى مما قد وقفه عليه[٢].

(١) ذكره القرطبي في التذكرة [١/ ٢٩٩].
(٢) ذكره عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد [ص: ٢١٥].

obeikandl.com

ذرية الأنبياء والشهداء والصالحين

معلوم أن الأنبياء والشهداء لا حساب عليهم، فالأنبياء معصومون من الذنوب، والشهداء غُفرت لهم ذنوبهم ساعة استشهادهم، ولذلك لا يحاسب الأنبياء والشهداء، وعلى ذلك يكون سؤال الأنبياء في الآخرة هو عن تبليغ أممهم بالمنهج، وهل بلّغوا رسالة اللّه أم لم يبلّغوها؟ وينتهي سؤالهم عند هذا الحد، أما المؤمنون فإنهم يحاسبون حساباً يسيرا، ولا يكون الحساب أكثر من عرض لرحمة اللّه عليهم، يقال لهم لقد فعلتم كذا وكذا، ولكن اللّه غفر لكم، ولذلك تكون المناقشة معهم عرضا لكرم اللّه وفضله عليهم، بل إن اللّه سبحانه يضيف لهم من فضله فيلحق بهم ذرياتهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ [الطور: ٢١].

إذن.. في ساعة الحساب يعطي المؤمنون من فضل اللّه الكثير، فإن اللّه بفضله يلحق هذه الذرية بآبائهم وأمهاتهم، شريطة أن تكون تلك الذرية مؤمنة، فالذرية لو لم تؤمن انفصلت عن العمل الصالح لآبائهم، كما حدث بالنسبة لابن نوح عليه السلام، فقد كفر ابن نوح ورفض الإيمان، فأغرقه الطوفان مع الكافرين، وعندما اتجه نوح إلى السماء طالبا نجاة ابنه، وأن يلحق، به قال اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ [هود: ٤٦].

وهكذا انفصل الابن عن الأب النبي لأنه عمل غير صالح، فالذرية المؤمنة يوم القيامة تلحق بآبائهم الصالحين، فهذه ليست كرامة للذرية، ولكنها كرامة للآباء الذين ألحقوا بهم، وما دام الابن يشترك في الإيمان مع الأب فإنه يلحق بالأب الصالح، ولو قصر به عمله عن رتبة أبيه، وذلك لا يؤثر في منزلة الأب الصالح ولا ينقص من عمله شيئاً، فإن اللّه تعالى لا يقسم عمل الأب الصالح على جزءين: جزء له، وجزء لابنه، بل يبقى عمل الأب الصالح تامًا وكاملاً، ومنزلته كما هي، ويلحق به الابن إكراماً له ولحسن إيمانه.

❁ ❁ ❁

المسلم العاصي

إن المسلم العاصي هو الذي زادت سيئاته عن حسناته، وهذا تنفعه شفاعة الشافعين بعد اللّٰه تعالى، وعلى رأسهم رسول اللّٰه ﷺ حيث قال صلوات اللّٰه وسلامه عليه: «شَفَاعَتِي لأهل الكبائر من أُمّتي»(١)، وعلينا أن نعلم أن المشفوع له لا بد وأن تكون له خصلة خير، خصلة الخير هذه هي التي توجب له شفاعة الشافعين(٢)، لذلك يروي: «لا تحقرن طاعة ما ولا تحقرن معصية ما فاللّٰه أخفى

---

(١) رواه أحمد في المسند [٣/ ٢١٣]، والترمذي [٢٤٣٥]، وأبو داود [٤٧٣٩]، وابن ماجه [٤٣١٠] وغيرهم عن أنس رضي اللّٰه تعالى عنه. وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٣٩٦٥].

(٢) روى ابن ماجه [٣٦٨٥] عن أنس بن مالك رضي اللّٰه تعالى عنه قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: «يُصفُّ الناس يوم القيامة صفوفاً» وقال ابن نمير: «أهل الجنة» «فيمر الرجل من أهل النار على الرجل من أهل الجنة، فيقول: يا فلان أما تذكر يوم استسقيت فسقيتك شربة؟ قال: فيشفع له، ويمر الرجل فيقول: أما تذكر يوم ناولتك طهورا؟ فيشفع له» قال ابن نمير: «ويقول: يا فلان أما تذكر يوم بعثتني في حاجة كذا وكذا فذهبت لك؟ فيشفَع له». وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه [٨٠٥].

وروى الطبراني في الكبير [١٠/ ٢٠١/ ١٠٤٦٢] عن عبد اللّٰه قال: قال رسول اللّٰه ﷺ ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ [فاطر: ٣٠]، قال: «أجورهم: يدخلهم الجنة، ويزيدهم من فضله: الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف في الدنيا».

وذكر أبو جعفر الطحاوي عن أنس بن مالك رضي اللّٰه تعالى عنه قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: «إذا كان يومُ القيامة جمع اللّٰه أهلَ الجنة صفوفاً وأهل النار صفوفاً، فينظر الرجل من صفوف أهل النار إلى الرجل من صفوف أهل الجنة، فيقول: يا فلان تذكر يوم اصطنعتُ معروفاً إليك؟ فيقول اللهم إن هذا اصطنع إليّ في الدنيا معروفا. قال: فيقال له خذ بيده وأدخله الجنة برحمةِ اللّٰه عز وجل.

وقال أنس رضي اللّٰه عنه أشهد أني سمعت رسول اللّٰه ﷺ يقوله.

وذكر القرطبي قال: قال أبو عبد اللّٰه محمد بن ميسرة، ورأيت في الكتاب الذي يقال إنه الزبور: «إني أدعو عبادي الزاهدين يوم القيامة فأقول لهم عبادي إني لم أزوِ عنكم الدنيا لهوانكم عليّ، ولكن أردت أن تستوفوا نصيبكم موفوراً اليوم، فتخللوا الصفوف، فمن =

obeikandi.com

ثلاثاً في ثلاث: رضاه في طاعته، وغضبه في معصيته، وأسراره في خلقه»(١). أي أن الإنسان لا يجب أن يحقر طاعة ما، فقد تكون هذه الطاعة البسيطة التي لا يلقي إليها بالاً، ولا يهتم بها، هي السبب في دخوله الجنة، لذلك إذا كانت هناك طاعة متاحة لك، ولو كانت بسيطة، فسارع في فعلها، لأنها قد تكون هي التي ستأتي لك بالرضا، وقد أعطانا رسول الله ﷺ مثلاً لذلك في قصة المرأة التي سقت كلباً في يوم حر شديد، فقد وجدت بئراً ونزلت وشربت منه، وعندما صعدت وجدت كلباً يلهث من الحر والعطش، فنزلت إلى البئر وملأت حذاءها

= أحببتموه في الدنيا أو قضى لكم حاجة أو رَدّ عنكم غيبة أو أطعمكم لقمة ابتغاء وجهي وطلب مرضاتي؛ فخذوا بيده وأدخلوه الجنة».

وذكر أبو حامد في آخر كتاب الإحياء، قال أنس رضي الله تعالى عنه: قال رسول الله ﷺ: «إن رجلاً من أهل الجنة يشرف يومَ القيامة على أهل النار فيناديه رجلٌ من أهل النار، ويقول يا فلانُ هل تعرفني؟ فيقول لا والله ما أعرفك؛ من أنت؟ فيقول أنا الذي مررت بي في الدنيا يوماً فاستسقيتني شربة ماء فسقيتُك. قال قد عرفت. قال: فاشفع لي بها عند ربك، فيسأل الله تعالى ويقول: إني أشرفت على أهل النار، فناداني رجل من أهلها فقال: هل تعرفني؛ فقلت: لا. من أنت؟ قال: أنا الذي استسقيتني في الدنيا فسقيتُك فاشفع لي بها فشفعني. فيشفعه الله تعالى فيُؤمر به فيخرج من النار». والله تعالى أعلم.

التذكرة [٢/٤١، ٤٢].

(١) ذكر البخاري في كتاب الرقاق [٨١] باب ما يتقي من محقرات الذنوب [٣٢] حديث [٦٤٩٢] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنا لنعدها على عهد النبي ﷺ الموبقات» قال أبو عبد الله: يعني بذلك المهلكات.

قال ابن حجر في الفتح: «قوله: باب ما يتقي من محقرات الذنوب» التعبير بالمحقرات وقع في حديث سهل بن سعد رفعه: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب؛ كمثل قوم نزلوا بطن وادٍ فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى جمعوا ما أنضجوا بها خبزهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه.

فتح الباري [١٣/١٢٨].

وقال: أخرج أسد بن موسى في الزهد عن أبي أيوب الأنصاري قال: إن الرجل ليعمل الحسنة فيثق بها، وينسى المحقرات، فيلقى الله وقد أحاط به، وإن الرجل ليعمل السيئة، فلا يزال منها مشفقاً حتى يلقى الله آمناً.

وحديث سهل رواه الطبراني في الصغير [٢/١٢٩/ ٩٠٤]، والكبير [٦/ ١٦٥/ ٥٨٧٢] وبنحوه أحمد في المسند [١/ ٤٠٢]، والبيهقي في الكبرى [١٠/ ١٨٧/ ٢٠٥٥١] عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده: صحيح.

ماء ثم صعدت وسقت الكلب حتى ارتوى فأدخلها الله الجنة بهذا العمل(١).

إذن.. مطلوب منا ألا نحقر أيّ طاعة ولا نستصغر أو نستهين بأي معصية، فقد تكون هي القشة التي قصمت ظهر البعير، فلا يحتقر إنسان معصية مهما كانت بسيطة، فقد تؤدي به هذه المعصية إلى النار، كما بين لنا الرسول الكريم ﷺ في قوله: «دَخلت امرأة النار في هِرّة ربطتها، فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خَشَاشِ الأرض»(٢)، ولا يصح مطلقاً تحقير عبدٍ من عباد الله بسبب مظهره، أو بساطة مركزه الدنيوي، لأنك لا تعرف ما السر الذي أخفاه الله فيه، ولا المنزلة التي لهذا العبد عند ربه، فقد يكون مستجاب الدعوة، فيقبل الله دعوته فيك.

واعلموا أن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم(٣).

---

(١) أخرج البخاري [٣٣٢١]، ومسلم [٢٢٤٥/ ١٥٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما كلب يطيف بركية قد كاد يقتله العطش. إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل فنزعت موقها فاستقت له به، فسقته إياهُ فغفر لها به».

(٢) أخرجه البخاري [٣٣١٨] واللفظ له، ومسلم [٢٢٤٢/ ١٥١] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما.

(٣) أخرج مسلم [٢٥٦٤/ ٣٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

obeikandl.com